حسام بوزكارن

رثاء المعنى

رثاء المعنى

حسام بوزكارن

bbouzgaren0@gmail.com

يختلف كل قارئ في طرق استقبال هذه الرواية، في معانيها التي تتشكل بين طيات تجاربه، وأفكاره، وعمق مكنوناته. قد تجد في صفحاتها ما يثير تأملك، أو يستفز رؤاك، أو يكشف حقائق تخفيها الحياة. ومع هذا التباين في التلقي، ثمة نسيج خفي يوحدنا، نسيج لا يرى لكنه يشدنا بقوة، هو سياق واقعنا المشترك، الظروف التي نتقاسمها مهما اختلفت أوجهنا وأصواتنا. هذه الرواية، إذن، ليست مجرد سرد، بل جسر عميق بين الذات والجماعة، بين الألم والأمل، بين الحلم والواقع. أوجه إليك كلامي هذا، أيها القارئ، ليس كمن يروي قصة بعيدة، بل كمن يفتح نافذة صادقة للحوار والاعتراف، لتكون جزءا من نسيج إنساني يعيد صياغة معنى الوجود في زمن يئن تحت وطأة الصمت والانتظار.

فِي ظِلِّ الألمِ يئنُ الوطنُ   وصمتُ القهرِ يلفُّ السكونَ
دمعُنا سَيلٌ لا ينضبُ   وأملُنا شمسٌ في الغُروبِ

صوتُ الحريةِ قد خنقوهُ   لكن في القلوبِ نارٌ تَولَّدُ
نُسطرُ الحكايةَ رغمَ الألمِ   ونزرعُ النورَ في الظلمِ

حسام بوزكارن

إهداء

إلى من ولدوا في العتمة، فحاولوا إشعال شمعة في وجه الليل.

إلى الأيادي المتشققة التي كتبت على جدران المدينة أسماء الراحلين، ثم اختفت في الزحام دون أن ينتبه لها أحد.

إلى الذين صرخوا في الساحات، فلم يسمعهم أحد، لأن المذياع كان مشغولا ببث خطب الرؤساء.

إلى تلك الأرواح التي ماتت دون جنازة... لأن الوطن نفسه لم يكن حاضرا.

إلى كل شاب جلس على رصيف الانتظار يحلم بوطن عادل، فوجد نفسه في طابور الهجرة، يتأمل المجهول أكثر مما يفهم الحاضر.

إلى من غرقوا في البحر، لأن اليابسة كانت ممتلئة بالكذب.

إلى المعلمين الذين سقطوا من علو التعليم نحو هاوية الفقر.

إلى الأطباء الذين تعبوا من معالجة نظام مريض.

إلى القضاة الذين أُجبروا على إصدار أحكام لا تؤمن بها ضمائرهم.

إلى الصحفيين الذين حوصروا داخل نصوصهم، فاختنقت الحروف في حناجرهم.

إلى المثقفين الذين سكتوا طويلا، حتى نسيهم التاريخ، ثم عاد ليجلدهم بصماتهم.

إلى المرأة التي ظلت تطالب بحقها في أن تكون إنسانا أولا، لا موضوعا في تقرير دولي.

إلى الرجل الذي تعب من دوره الأبوي في وطن يعامله كقاصر.

إلى الطفل الذي كبر وهو يرى بلاده تغتصب كل يوم باسم الاستقرار.

إلى كل من كره السياسة لكنه اختنق من نتائجها.

إلى من سرق منه صوته، ثم طلب منه أن يصفق.

إلى من حاول الفهم، فاتهموه بالخيانة.

وإلى من حاول أن يكتب، فاتهموه بالحقد.

إلى الجيل الذي لم يخلق في زمن الأبطال، بل في زمن التحالف بين التفاهة والخوف.

إلى كل من ظل يحمل على ظهره وطنا لا يتذكر اسمه… لكنه لا يستطيع نسيانه.

إليكم هذه الرواية...

ليست بيانا سياسيا، ولا هجاء حزبيا، بل وجعا موزعا على 15 فصلا،

صرخة مكتومة داخل جمجمة شاب عربي...

يريد فقط أن يعيش.

لكنهم أخبروه أن الحلم جريمة.

صرخة البداية

لم يكن صباح 17 ديسمبر في سيدي بوزيد مختلفا عن بقية الصباحات.
السماء رمادية باهتة، كأنها لم تنم جيدا، والهواء مشبع بروائح الشاي، والغضب الكتوم.

في تلك المدينة المنسية، لا تحدث المفاجآت، بل يتكرر الملل كأنه قدر مفروض، مملوء بأحاديث قصيرة، ووجوه أنهكها التكرار.

في أحد الأزقة، دفع محمد العربة الخضراء، لا بعزيمة الثوار، بل بثقل العادة.
كأن جسده قد حفظ الطريق أكثر مما يحفظه عقله.

يرتب التفاح والخوخ، بعناية متعبة، كأنه يعرف أن لا أحد سيشتري، لكن عليه أن يحافظ على الشكل، لأن الكرامة في أحيان كثيرة، تبدأ من النظام.

الشرطية لم تكن غريبة.

صوتها معروف، حركتها متوقعة، وجهها يحمل تلك السلطة الصغيرة التي يعطيها الزي الرسمي لمن لم يعطهم التاريخ شيئا آخر.

اقتربت منه كمن يؤدي دورا، لا كمن يمارس حقا.

طلبت منه الإذن، وهو يعرف أن الإذن لا يعني شيئا.

ثم بدأت الإهانة، كما تبدأ عادة:

بصوت عال، أمام الناس، وبدون سبب واضح.

حاول محمد أن يتكلم.

أن يشرح، أن يطلب قليلا من الفهم.

لكن اللغة سقطت من فمه مثل قشر التفاح، لا جدوى منها.

المشهد لم يكن جديدا عليه.

مصادرة العربة، شتائم في العلن، دفعة على الكتف، استهزاء صريح.

المارة يمرون، بعضهم يضحك، بعضهم يطأطئ الرأس.

لا أحد يتدخل.

الجميع خائفون، أو عاجزون، أو تعودوا على الظلم حتى صار مشهدا مألوفا.

عاد محمد إلى البيت لا ليرتاح، بل ليتحمل السؤال الأكبر:

ماذا بقي لي؟

لا وظيفة، لا سند، لا اعتبار.

حتى التفاح، حتى العربة، حتى الصمت لم يعد مجديا.

جلس على سريره كمن جلس في قفص.

فكر، ثم توقف عن التفكير.

هناك لحظة يتجمد فيها العقل، ويأخذ الجسد القرار وحده.

خرج من البيت، ذهب إلى الولاية.

حاول الشرح.

لم يستمع أحد.

لم ينظر إليه أحد.

عاد بخطى بطيئة.

دخل دكانا صغيرا.

اشترى قنينة بنزين.

كانت القنينة أثقل من العالم كله، وهو يحملها بيد واحدة.

وقف في الساحة، لا يصرخ، لا يحتج.

سكب السائل على جسده بهدوء غريب.

كأن الأمر لا يتطلب صراخا، بل يقينا.

أشعل النار.

لم تكن نارا فقط، كانت سؤالا.

لماذا لا ترى هذه الحياة إلا وهي تحترق؟

لماذا لا يصغى للوجوه إلا وهي تصرخ بلغة النار؟

لماذا الكرامة لا تعترف بها إلا بعد أن تفقد؟

في دقائق، احترق محمد.

لكن في صدورنا اشتعل شيء آخر.

لم يحترق ليهرب.

لم يحترق ليغيب.

احترق ليقول: "كفى"

وكانت كلمة "كفى"، أقوى من كل الخطب.

لم تمر دقائق على احتراق محمد، حتى بدأت المدينة تخرج من صمتها.

في سيدي بوزيد، الغضب كان يسكن الناس، لكن بلا صوت.

كانوا يمشون مثقلين، يبيعون ويشترون ويضحكون قليلا ويتألمون كثيرا، ولا أحد يجرؤ أن يسمي ما يحدث.

لكن عندما احترق محمد، تغير كل شيء.

كأن الجسد المشتعل فجر جدارا من الداخل.

انتشرت الأخبار بسرعة لا تناسب بعد المدينة.

في البداية، لم يكن أحد يصدق.

"قالو محمد حرق روحو قدام الولاية".

"علاش؟"

"بسبب الشرطية، بسبب الإهانة، بسبب القهر، بسبب كل شيء".

الناس لم يعرفوا بم يبدؤون الغضب:

هل يبدأون من صورة محمد وهو يحترق؟

أم من السنين التي قضوها وهم يختنقون ولا يملكون نارا يصرخون بها؟

هل يغضبون من الشرطية؟ من الدولة؟ من أنفسهم؟

الغضب كان واسعا أكثر من أن يوجه.

خرجت العائلات من البيوت.

الشباب احتشدوا أمام الولاية، نفس المكان الذي رفض أن يسمع محمد.

لكن الآن، الأصوات عالية، والعيون حمراء.

رفعت أولى اللافتات بعفوية:

"شغل، حرية، كرامة وطنية".

لم يخطط أحد لذلك.
لم تكن هناك قيادة، ولا حزب، ولا منشور سري.
كانت فقط لحظة تجاوز فيها الإحساس الخوف.

الشرطة ظهرت بسرعة، تحمل الهراوات والقلق.

العناصر لا تفهم:

كيف تحولت مدينة خاملة إلى فوهة تصرخ؟

من أشعل هذه النار في الناس؟

أين ذهب الخوف؟

بدأت الهتافات تكسر الجدار الصوتي للمكان:

"يا محمد، لا تبكي، راك ولدنا الكل".

"بالروح، بالدم، نفديك يا شهيد".

امرأة مسنة تبكي، ليس على محمد وحده، بل على ابنها الذي تخرج ولم يجد عملا، وعلى زوجها الذي مات في صمت، وعلى عمرها الذي ضاع وهي تنتظر إصلاحا لم يأت.

رجل شاب يقف في الصف الأمامي، صوته مبحوح، لكنه يهتف كأن قلبه يريد أن يخرج من صدره.

في أحد الأزقة، بدأ الصدام الأول.

رشق بالحجارة، إطلاق غاز مسيل للدموع.

المدينة تتنفس دخانا بدل الأوكسجين.

لكن ما لم تفهمه السلطة أن الناس حين يتنفسون الدخان، يتعلمون كيف يصرخون.

في الليل، لم تنم سيدي بوزيد.

المدينة كانت تمشي بين الأزقة، تقرأ اسم محمد على الجدران، وتخزنه في القلب.
لم يعد اسمه "محمد البوعزيزي" فقط، صار اسمه:
"نحن جميعا".

كانت المدينة، لأول مرة، تتكلم بصيغة الجمع.

يوم 14 يناير 2011، لم يكن صباحا عاديا.

الناس في تونس لم يستيقظوا لأنهم لم يناموا.

الهواء كان خفيفا، لكنه مشحون.

المدينة كلها كانت كأنها حبسة نفس طويلة، تنتظر شيئا لا تعرفه بالضبط.

في الشارع، لم يعد أحد يسأل: "هل سمعت عن محمد البوعزيزي؟"

الاسم صار جزءا من الذاكرة اليومية، مثل أسماء الشوارع والمقاهي القديمة.
لكن الجديد الآن :هل تسقط السلطة؟

في العاصمة، الناس تزحف.

لا أحد يقود.

الميدان يمتلئ، يكبر، يتضخم.

كأن كل شارع يدفع بأهله نحو الشارع الأكبر.

الهتاف يتحول إلى جدار صوتي لا يمكن تجاوزه.

تحت قصر قرطاج، كان الصوت يصل مكسورا.

الرئيس يتنفس من داخل جدران الرعب.

أجهزته الأمنية تنهار بصمت.

لم يعد الخوف يشتغل كسابق عهده.

الناس كسروا الجدار، ولم يعودوا مستعدين لإعادة ترميمه.

عند الثالثة بعد الزوال، بدأت الشائعات:
"بن علي غادر القصر".
"لا، مازال".
"سمعته في التلفزة".
"ما فهمتش، هو هرب؟"

عند المساء، خرج المذيع الرسمي.

صوته كان باردا.

كأنه يقرأ نصا من زمن آخر:
"غادر رئيس الجمهورية البلاد مؤقتا"

لكن الشارع لم يسمع كلمة "مؤقتا"
الناس سمعوا فقط:
"الرئيس سقط"

في لحظة، تبدلت ملامح التاريخ.

الشعب الذي كان صامتا صار فاعلا.

الرئيس الذي كان ظلا فوق الجميع، صار خبرا في نشرة.

في سيدي بوزيد، المدينة التي أشعلت الفتيل، سمعوا الخبر بصوت مرتفع.

رجل مسن بكى، ليس لأن الرئيس سقط، بل لأنه لم يصدق أن ذلك ممكن.

امرأة صفقت، ثم صمتت، ثم سألت:
"واش بصح؟ بن علي مشا؟"

في المقاهي، انقلب الصمت إلى جدل.

"ماشي معقول، بن علي ما يهربش"
"هاك شفت، الشعب أقوى"
" آش باش يصير تاو؟"

وفي البيوت، جلس الناس أمام التلفزة بعيون مذهولة.

التاريخ، أخيرا، تحرك.

ولأول مرة، لم يكن المشاهدون متفرجين فقط.

كانوا هم من كتب السطر الأخير.

وفي الخارج، العالم استيقظ.

الصحف الفرنسية تنقل اللحظة كزلزال.

الجزيرة تبث المشاهد دون انقطاع.

العواصم تتحرك، لكنها متأخرة عن الشارع التونسي.

في الرياض، القاهرة، الرباط، عمان، صنعاء، كانت العيون تتجه إلى تونس.
كأنها أخرجت من فمها شيئا كان يخنقها منذ زمن طويل.

وفي عواصم الغرب، بدأ الخوف من الكلمة التي لا تقال رسميا:
"السقوط"

كل رئيس بدأ يعد أيامه.

كل نظام بدأ يتساءل عن هشاشته.

كل مستشار أمني كتب في مذكرته كلمة "بوعزيزي".

وفي تونس، وسط كل هذا، ظل سؤال واحد يتردد:
"وماذا بعد؟"

في مكان بعيد عن الشوارع، بعيد عن الشاشات، عن صراخ وهروب الرئيس...
كان هناك مكان بلا ضوء.

بلا خبر.

بلا توقيت.

في سجن “الناظور”، وفي سجون كثيرة مثله، كان الزمن متوقفا.

الزنازين تعرف صوت السعال، ورائحة الرطوبة، ولا تعرف شيئا عن العالم الخارجي.

الخبر لم يصل بعد.

السجناء، خصوصا السياسيين، لم يسمعوا بسقوط بن علي.

لم يكن مسموحا لهم أن يسمعوا.

كان يسمح لهم فقط أن يبقوا أحياء... أو على الأقل، أن يتركوا معلقين بين الحياة والموت.

داخل الزنزانة رقم 9، جلس مهدي، شاب في نهاية العشرينات.

ألقي عليه القبض قبل عامين لأنه كتب مقالة بعنوان:
"الدولة التي تخاف الكلمات".

كسرت أنفه أثناء التحقيق، وانتزعت أظافره في أسبوعه الأول.

لكنه ما زال يحتفظ بصوته.

رغم أنه لم يتكلم منذ شهرين.

في الزنزانة المقابلة، يقبع رجل خمسيني، اسمه عبد الرؤوف، كان نقابيا.

التهمة؟ التحريض على الإضراب.

الحكم؟ غير معلوم.

وفي الزاوية، خلف جدار مهترئ، امرأة تدعى سمية.

وضعت في قسم الرجال لأنهم لم يجدوا قسمًا خاصا بالنساء "الخطرات."

كانت صحافية.

كتبت ذات مرة:
"الدولة لا تحب من ينظر في عينيها".

لكنها الآن لا ترى شيئا.

فقدت البصر في التحقيق الأخير.

الضربات كانت دقيقة جدا.

في هذا اليوم، كانت هناك حركة غير معتادة.

السجان لم يسب أحدا.

ولم يضرب أحدا.

اكتفى بجولة سريعة، وعيناه شاردتان.

مهدي لاحظ ذلك.

سأل عبد الرؤوف من خلف الجدار:
"واقعة شي حاجا؟"

أجابه صوت ضعيف:
"حسيت بشيء غريب... ريحة خوف، وليست ريحة قوة".

سمية سمعت همسهما، فقالت بصوتها المتعب:
"أنا سمعتهم يقولوا شي عن الرئيس... ولكن لست متأكدة".

مرت ساعات، طويلة كالجدران.

ثم دخل السجان عند المساء، يهمس للسجان الآخر:
"بن علي هرب"...

قالها بصوت منخفض، كأنه خائف من الجدران.

مهدي سمع الكلمة.
هرب؟

هل تعني أنه انتهى؟

هل يعني ذلك أننا سنخرج؟

هل سيفتح الباب؟

لكن الباب لم يفتح.

الليل مر كعادته، ثقيلا، خانقا، بطيئا.

في الصباح، لاحظوا أن وجبات الطعام أتت متأخرة، والكمية مضاعفة.

لكن لا أحد تكلم.

السجان لم يدخل الزنزانة.

لم يفتح فمه.

بقي صامتا، كأنه يفكر في مكان آخر.

مهدي كتب على الحائط بأصبعه:
"وإذا سقط الرئيس، من يسقط معه؟"

في الخارج، كانت الاحتفالات تملأ الميادين.

لكن في الداخل، في ذلك الجحر المنسي، بقي السجناء ينتظرون...

ليس فقط الحرية، بل الجواب.

الجواب على سؤال بسيط:
"هل يعرف الوطن أن أبناءه في السجون؟"

كان ياسين جالسا وحده في زاوية المقهى.

المكان مزدحم، الشاشات تعرض لقطات من مظاهرات تونس، والناس يعلقون بحذر: "هرب؟ معقول؟"

"بن علي طار، طار يا رجال!"
"إذا تونس قدرت، حنا شنو ناقصنا؟"

لم يكن يتكلم.

كان يحدق في الشاشة وكأنه يراها لأول مرة.

وجهه ثابت.

عيناه جامدتان.

كأن المشهد لم يدخل من عينيه فقط، بل انغرس داخله، في عظامه.

في هذه اللحظة، شعر بشيء غريب يتحرك في صدره.

ليس فرحا.

وليس غضبا.

شيء أعمق.

أقرب إلى ذلك الصدع الصغير الذي يحدث في جدار قديم... صدع لا يرى، لكنك تشعر به.

كان ياسين شابا في أوائل الثلاثينات.

درس القانون.

آمن طويلا بأن التغيير لا يأتي من الشارع، بل من داخل المؤسسات.

لكن المؤسسات خانته.

في آخر سنة دراسية، كتب بحثا بعنوان:
"السلطة والقانون: من يحمي من؟"

ورفض بحثه، بدعوى أنه غير موضوعي.

منذ تلك اللحظة، بدأ يتراجع.

خسر حماسه.

خسر لغته.

بدأ يتحول إلى كائن صامت، حي من الخارج فقط.

لكنه اليوم...

اليوم شعر أن صمته بدأ يتشقق.

"ماشي ساهل، دكتاتور يطيح فنهار!؟"

همس رجل عجوز خلفه.

ياسين لم يلتفت.

لكنه استمع.

استمع لكل كلمة كأنها طعنة في الرواية الرسمية التي تربى عليها.

ثم جاء نادل المقهى، شاب صغير، عيونه تلمع، وقال بحماسة:

"تونس كتبت التاريخ... إيوا حنا؟ غادين نبقاو نتفرجو؟"

ضحك بعض الجالسين بسخرية، لكن أحدهم رد:

"شكون قال ليك بلادنا ماشي تونس؟!"

هنا، شعر ياسين برغبة في الكلام.

بشيء يحرق لسانه.

لكنه لم يتكلم.

بعد.

قام من كرسيه، مشى في الشارع دون هدف.

السيارات تمر.

الناس يمشون كأن شيئا لم يحدث.

لكن داخله، كان هناك بركان صغير بدأ يصحو.

تذكر صديقه في الجامعة، أيوب، الذي اختفى بعد احتجاج صغير.

وتذكر تلك الليلة التي ضربه فيها شرطي فقط لأنه رفض إعطاء هاتفه.

وتذكر أباه، الذي كان يهمس وهو يشاهد الأخبار:

"كيكذبو علينا."

كل شيء عاد فجأة.

في شارع جانبي، وقف أمام جدار قديم مغطى بالكتابات.

كلمات مشطوبة.

شعارات قديمة.

رسائل حب يائسة.

لكنه لمح بينها عبارة صغيرة، بالكاد مقروءة:

"لا أحد يهرب من صوته للأبد."

هنا...

وقف ياسين طويلا.

ثم أخرج دفترا قديما من حقيبته.

فتح الصفحة الأولى.

كتب جملة واحدة:

"ربما لن أصرخ الآن، لكنني لن أصمت بعد اليوم".

ثم أغلق الدفتر، ومشى.

كان الشارع هو نفسه.

لكن ياسين لم يعد هو نفسه.

العدوى

لم يكتب ياسين شيئا منذ تلك الجملة الأخيرة في دفتره:

"ربما لن أصرخ الآن، لكنني لن أصمت بعد اليوم".

مرت أيام قليلة، لكنه شعر أنها طويلة.

كان يتابع الأخبار كمن يتتبع نبوءة غامضة.

وفي صباح 25 يناير، استيقظ على خبر عاجل:

"مظاهرات ضخمة في القاهرة، الآلاف يحتلون ميدان التحرير".

فتح الهاتف.

صفحات التواصل مشتعلة.

شعارات، صور، فيديوهات...

لكنه لم يصدق تماما حتى رأى الصورة:

صحفي مصري من قلب الميدان، يبث بكاميرا هاتفه:

"هنا القاهرة، لا صوت يعلو فوق صوت الناس".

"نحن لسنا جياعا فقط نحن أحياء ونذل".

"كل شيء تغير. والكل هنا يعرف: لا عودة للوراء".

كان اسم الصحفي مالك الديب.

شاب نحيل، بعينين متعبتين، وصوت هادئ رغم الفوضى حوله.

كان ياسين يتابع الفيديوهات من سطح منزله، حيث الشبكة أفضل، والسماء مفتوحة. شعر أن المسافة بينه وبين ميدان التحرير لا تقاس بالكيلومترات.

كان أقرب إليه من الحي الذي يسكنه.

في كل بث مباشر، كانت عدسة مالك تدور بهدوء:

وجوه شابة، لافتات مكتوبة بخط اليد، وهتاف جماعي واحد:

"عيش، حرية، كرامة إنسانية".

توقف المشهد على صورة لعجوز يبكي وهو يهتف، وكتب مالك تحتها:
"أول مرة أرى دموعا تقول الحقيقة أكثر من الكلمات".

ابتسم ياسين.

ثم فتح دفتره، وكتب:
"هذا ليس احتجاجا، هذا كشف جماعي لما نخفيه منذ زمن".

فكر في شيء غريب:

كل هؤلاء في الميدان، ربما لا يعرفون أسماء بعضهم.

لكنهم يعرفون شيئا آخر: أنهم ولدوا في الأكاذيب نفسها، وأنهم اليوم يحاولون أن يولدوا من جديد.

لم يكن ياسين في القاهرة.

لكنه شعر أنه يرى من خلال مالك ما لم يره من قبل.

عاد إلى الفيديو، والناس تهتف، والدخان يملأ الخلفية، والعدسة تتحرك.
وفجأة، توقفت الصورة.

الصمت.

ثم ظهر مالك وجها لوجه أمام الكاميرا، لأول مرة.

وقال:

"أنا مالك. صحفي، ابن حي فقير، كنت أظن أن مهنتي هي الحياد. لكن لما بدأت الناس تسقط، عرفت أن الحياد جريمة".

ثم ابتسم بخفة وأضاف:
"هنا ميدان التحرير وأنا حي، للآن".

انتهى البث.

لكن شيئا بدأ في ياسين: الدفتر الذي ظل سنوات مغلقا...

صار مفتوحا.

والصوت الذي لم يستخدمه.

صار يطالبه بالخروج.

خرج من البيت.

فتح المسودة القديمة لمقاله: "دستورنا: النص الذي لم يحدث".
وراجع كل كلمة.

ثم كتب على الغلاف: "الحياد جريمة".

كان ياسين يتنقل بين الشاشات كمن يبحث عن شيء ضاع منه ولم يعرف اسمه. الهاتف، الحاسوب، التلفاز، الراديو... كلها تحولت إلى نوافذ مفتوحة على ما يشبه المعجزة: العرب ينتفضون.

فتح تطبيق "تويتر."

الوسوم تتغير كل ساعة:
#ميدان_التحرير، #الشعب_يريد، #ارحل، #كرامة، #رصاص_في_النهار.

وكل صورة كان فيها معنى لم يقل من قبل.

كان يتتبع حسابات:

مالك الديب في القاهرة،

مراسل حر من بنغازي،

ناشطة من صنعاء،

وطالب من درعا يوثق الجدران قبل أن تهدم.

في إحدى الليالي، ظهرت له تغريدة من صحفية لبنانية:

"نحن لا نغرد، نحن نكتب أرشيف الغضب".

أعاد نشرها، وكتب تعليقا:
"الغضب صار لغة مشتركة بين الذين لم يتكلموا يوما معا".

لكنه لاحظ شيئا غريبا:

كلما تابع أكثر، شعر أنه يعرف أقل.

في الصورة الأولى: شاب يبتسم وهو يضع علما على تمثال.
في الثانية: نفس الشاب، بعد ساعة، محمولا بين ذراعين وميت.

كان يتلقى العالم على جرعات متناقضة:

أمل وخوف، دمعة وابتسامة، صرخة واحتفال.

كأن الأحداث لا تعيش في الزمن نفسه.

رأى فيديو لمالك يضرب في أحد الشوارع الجانبية، قبل أن يسحب الهاتف من يده.
تجمد قلبه.

دخل التعليقات.

كان هناك صمت، ثم سيل من "وين مالك؟"، "حدا شافه؟"، "رجاء طمنونا."

في تلك الليلة، لم يستطع النوم.

فتح نافذة "مسودات" في هاتفه، وكتب:

"أنا أتابع من وراء الشاشة، وهم يصنعون الحدث.
أنا أقرأ عناوين الموت، وهم يكتبونه بالدم.
لا أريد أن أكون مجرد قارئ أخبار".

أغلق الهاتف.

ثم أعاد فتحه.

فتح حسابه على "فيسبوك"، وكتب أول منشور منذ شهور:

"إذا كنت تشعر أن ما يحدث ليس عنك، فانتظر قليلا الشارع الذي تمشي فيه الآن،
قد يغلق غدا بحاجز وسؤال: من أنت؟"

ضغط "نشر"،

ثم بقي يحدق في الشاشة.

في الصباح، وجد العشرات يشاركون المنشور.

لكن ما أثار انتباهه، تعليق واحد من حساب باسم غير معروف:

"ربما حان الوقت لتخرج من وراء الشاشة".

في مساء بارد من فبراير، جلس ياسين في مقهى قديم وسط المدينة.

كان مقهى صغيرا، بإضاءة خافتة، وطاولات خشبية مهترئة، ورفوف مليئة بكتب منسية.

أمامه جلسوا أربعة: آدم، نادية، فؤاد، وسامي.

أصدقاء الدراسة.

اختلفت طرقهم، لكن جمعهم خبر واحد:

"سقط مبارك"

آدم، المهندس الصامت، شرب قهوته وقال:

"ما وقع في مصر لا يصدق.
لكن ما يقلقني هو ما سيأتي بعده.
من يملأ الفراغ؟"

نادية، التي كانت تكتب خواطر على الفيسبوك وتحلم بأن تصبح روائية، قالت:

"أنا لا أفكر في السياسة كثيرا، لكن اليوم حسيت بشيء عميق...
حسيت أن الشعوب لا تموت، حتى لو خذلها الجميع".

فؤاد، الذي فقد أخاه في أحداث 20 فبراير قبل أن تبدأ، لم يتكلم كثيرا.

فقط أشعل سيجارة، وقال بنبرة متعبة:

"الزعماء يسقطون، لكن النظام؟ النظام لا يسقط بسهولة".

سامي، الذي كان يضحك دائما، هذه المرة لم يضحك.

قال:

"قبل مدة كنت أظن أن الوطن هو الحدود والعلم.
اليوم فهمت أن الوطن هو اللحظة اللي تقول فيها لا...
وتعيش بعدها".

ساد الصمت للحظة.

ثم التفت الجميع لياسين.

لم يكن يتكلم، فقط ينظر إليهم بعينين غارقتين.

قال بهدوء:

"أنا كتبت عنوان جديد اليوم:
من خلف الشاشة إلى قلب الشارع.
حاس أني ضيعت وقت كبير في المشاهدة.
وآن الأوان نعيش شوية".

نادية ابتسمت، وقالت:

"ربما الكتابة ليست هروبا.
بل مقاومة".

ضحك فؤاد:

"ولكن لازم تنزل معانا السبت.
ما تبقاش في قلب الشارع من بعيد".

رد ياسين بابتسامة باهتة:

"أفكر في الأمر.
لكن داخلي بدأ يتغير.
هذه أول مرة أحس أني أنتمي".

نظروا جميعا إلى بعضهم.

كان في الجلسة شيء عميق.

كأنهم لا يتكلمون عن مصر، بل عن شيء أبعد... عن الذات، والكرامة، والانتظار الطويل.

في صباح الأحد، 20 فبراير 2011، خرج ياسين من بيته دون أن يقول شيئا.
لم يحمل لافتة، ولا شعارا، فقط دفترا صغيرا في جيبه وكاميرا مهترئة على كتفه.
كان يريد أن يرى بعينيه. أن يفهم ما يحدث خارج الشاشة.

المدينة لم تكن كما يعرفها.

الوجوه تغيرت.

في الساحة المركزية، عشرات، ثم مئات، ثم آلاف.

نساء ورجال، شيوخ وشباب.

من كل الطبقات، من كل اللهجات.
يرددون: "كرامة، حرية، عدالة اجتماعية."

كان الصوت غريبا، جديدا، لكنه صادق.

لا يقوده حزب، ولا يعلوه زعيم.

بل فقط، إحساس داخلي بالاختناق.

إحساس أن الوقت قد حان.

اقترب ياسين من مجموعة صغيرة تهتف بحماس، فسأل أحدهم:

"منظمين؟"

رد الشاب:

"لا أحد ينظم الكرامة، يا صديقي.
نحن فقط قررنا أن لا نخاف".

ابتعد ياسين قليلا، وبدأ يصور.

ثم جلس على الرصيف، وفتح دفتره.

كتب:

"ما يحدث هنا ليس تكرارا لتونس أو مصر.
إنه شيء آخر.
إنه نحن، كما لم نر أنفسنا من قبل".

أصوات في الخلفية ترتفع:

"الشعب يريد إسقاط الفساد"!

مر أمامه رجل مسن ببطء، يمسك يد حفيده، ويهتف.

فكر ياسين:

"من علم هذا الشيخ الهتاف؟
من أعطى الحفيد هذه الجرأة؟"

وفي تلك اللحظة، التفت خلفه.

رأى سامي، صديقه، يهتف من قلب الحشد.

رأى نادية توثق بلقطات هاتفها.

رأى فؤاد يوزع ماء على المتظاهرين.

أما آدم... فلم يجده.

كان هناك فراغ، لا يعرف إن كان غيابا أم شيئا آخر.

ثم دون في نهاية صفحته:

"لم أعد أتابع.
صرت أشارك.
وهذه أول مرة أشعر فيها أن هذا الوطن... ممكن".

الآمال المسمومة

في مساء يوم الإثنين، بعد عودة ياسين من ساحة التظاهرة، دخل البيت بخطوات صامتة.
خلع حذاءه دون أن يتكلم، وضع دفتره على الطاولة، وجلس يشرب ماء باردا.

كانت أمه في المطبخ تراقب الأخبار من شاشة صغيرة.

أبوه يجلس في الصالة يتابع خطابا ملكيا حول الإصلاحات الدستورية القادمة.

وصوت المذيع يردد بجدية:

"الملك يستجيب لتطلعات الشعب ويعلن تعديل الدستور بمنهج تشاركي".

قطع الأب الصوت، التفت إلى ياسين وقال بلهجة منتصرة:

"أرأيت؟ الدولة استجابت. الملك تدخل شخصيا. لا حاجة لكل هذا الصراخ في الشارع".

رد ياسين بهدوء، محاولا كبح مرارته:

"لكن من سيشارك في التعديل؟ نفس الأحزاب التي خانت الناس؟ نفس النخب التي لم تفهم حتى الآن ما حدث؟"

تدخلت الأم وهي تضع الشاي أمامهما:

"على الأقل هناك تجاوب. الأمور تتغير. كن إيجابيا".

ابتسم ياسين بسخرية خفيفة:

"الإيجابية لا تعني السذاجة يا أمي. الدستور لا يكتب من فوق، بل من الناس. منا نحن".

رفع الأب حاجبيه، بدا غاضبا، لكنه حاول الحفاظ على نبرته المتزنة:

"أنا عشت سنوات الجمر والرصاص. اليوم أنتم تتكلمون وكأن التاريخ بدأ من عندكم. النظام ليس مثاليا، لكن هل البديل هو الفوضى؟"

سكت ياسين.

أحس فجأة أن المسافة بينه وبين والده لم تعد فقط جيلا، بل عالمين.

قام إلى غرفته دون أن يرد.

وفي الممر، سمع أمه تهمس لأبيه:

"هو ليس ضد الملك... فقط يرى العالم بطريقة أخرى".

جلس في غرفته، وأخرج دفتره.

كتب:

"ليس الصراع مع السلطة فقط... أحيانا يكون مع من نحبهم، من نشاركهم البيت والدم. الثورة الحقيقية تبدأ حين لا نستطيع حتى شرح أنفسنا... لمن نحب".

ثم أغلق الدفتر، وأطفأ المصباح.

في غرفة صغيرة بمقهى قديم، حيث كان الهواء مشبعا برائحة القهوة المرة والكتب القديمة، اجتمع ياسين مع ثلاثة أصدقاء قدامى.

كانوا ينتظرون مناقشة جديدة، لكن هذه المرة لم تكن عن الثورة أو الدستور، بل عن حزب وطني حظي بالكثير من الآمال: حزب العدالة والتنمية.

دخل "طارق"، المثقف المستقل، وهو يحمل ملفا مليئا بالأوراق.

جلس مقابل ياسين، نظر إليه بعينين حادتين، وقال دون تمهيد:

"إذا أردنا أن نفهم لماذا فشلت حركة 20 فبراير في تغيير حقيقي، يجب أن نبدأ من هنا. العدالة والتنمية تبخر أحلام الناس".

تنهد فؤاد، وقال:

"ولكن كانوا الخيار الوحيد الذي اتفق عليه الشعب".

رد طارق بغضب:

"خيال! هذا حزب وقع في فخ المنظومة.

بدل أن يواجه الفساد، صار جزء منه.

بدل أن يدافع عن الإصلاح، صرف الطاقة في المناورات السياسية".

نادية أضافت بحزن:

"تغيرات؟ كانت وعود فقط.
الناس تعبوا من الانتظار، من الخيبات، من الوعود الكاذبة".

طارق رفع يده، وكأنه يوقف الحوار:

"فكروا معي:

فين كان البرلمان؟
فين كانت الحملات ضد نهب المال العام؟
الحزب بدل يحارب الفساد، صادق مع الفساد.
ومن يدافع عن مصلحة الشعب؟"

ابتسم ياسين، وقال بهدوء:

"وأين كانت أصوات المثقفين؟
أليس من واجبنا أن نكون مع الشعب، لا مع السياسة؟"

طارق نظر إليه، وقال:

"أنت على حق.
لكن حتى المثقفين وقعوا في نفس الفخ.
صاروا يبررون الفشل بدوافع سياسية، أو يتجنبون المواجهة خوفا من القمع".

جلس الجميع في صمت ثقيل، تحوم فوقه رائحة خيبة أمل عميقة.

ثم قال فؤاد:

"هل بقي شيء نأمله؟"

ردت نادية:

"الأمل موجود في الشارع، في الناس اللي خرجوا، وليس في الأحزاب ولا في البرلمان".

طارق أنهى الجلسة بلهجة حاسمة:

"إذا استمرينا في نفس اللعبة، لن يتغير شيء.
يجب أن نبدأ من جديد.
من الناس. من الحقيقة. من المواجهة".

خرجوا من المقهى، كل واحد منهم يحمل في عينيه سؤالا:

"هل يمكننا أن نكون صوتا حقيقيا؟"

في زاوية مظلمة من مقهى شعبي صغير، كانت الطاولات الخشبية تحمل علامات الزمن والدهس، يجلس "حاتم" و"سعيد" مواجهة لبعضهما، كل منهما يحمل ثقله الفكري وأفكاره العميقة.

حاتم، شاب يساري، يلبس قميصا بسيطا ونظارات ثقافية، ينتمي إلى جيل كان يحلم بثورة حقيقية تغير بنية المجتمع.

سعيد، رجل في الأربعين من عمره، ذو لحية مرتبة، وهو إسلامي محافظ ينتمي إلى تيار سلفي معتدل، لكنه يحمل آراء حادة حول الواقع السياسي.

حاتم بدأ الكلام بصوت متألم:
"صعود العدالة والتنمية، بالنسبة لي، كان تحولا مأساويا.
كنت أتوقع منهم مواجهة المنظومة بكل شجاعة، لكن ما حدث هو العكس".

سعيد رد بنبرات هادئة، لكنه حازمة:
"أنا أفهم إحباطك، لكنك تنسى أن الحزب جاء في ظل ظروف صعبة.
كان عليهم أن يلعبوا بحذر".

حاتم أجابه:
"حذر؟ حذر إلى حد التنازل عن المبادئ؟

حين نرى كيف ساهموا في تثبيت نفس النظام الذي كانوا يفترض أنهم ضده، يصبح السؤال: هل كان صعودهم حقيقيا أم مجرد وهم؟"

سعيد رفع حاجبه وقال:
"الوهم؟ أنت تنظر إلى السياسة كصراع أبيض وأسود، بينما الواقع مليء بالظلال.
الحزب استطاع أن يعبر عن رغبة شرائح واسعة من المجتمع، خصوصا الطبقات الوسطى والفقيرة التي ظلت مهمشة".

حاتم تنهد، وأدار نظره بعيدا، ثم قال:

"لا أجادل في تمثيلهم الجماهيري، لكن تمثيل الجماهير لا يعني بالضرورة التغيير الجذري.
لقد خانوا آمال الناس، وخانوا روح الثورة".

سعيد اقترب قليلا وقال:

"أنا أرى أنكم، كيساريين، كثيرا ما أخطأتم في فهم البعد الثقافي والديني في المجتمع.
أنتم تريدون ثورة مستنسخة من الخارج، ونحن نريد تغييرا داخليا يبدأ من القيم".

حاتم رد بحدة:
"لكن القيم ليست حكرا على أحد!
وكيف تبررون عندما يتعاون الحزب مع نخب فاسدة؟
عندما يسكت على قمع الصحافة؟
عندما يصبح جزءا من المنظومة بدل مواجهتها؟"

سعيد نظر إلى الساعة، ثم أضاف:
"السياسة لعبة معقدة. تجربة العدالة والتنمية علمتنا أن النقاء في السياسة قد يكون فخا قاتلا".

حاتم لم يستطع كبح إحباطه وقال:
"ربما. لكن ما يعذبني هو رؤية ملايين الناس يعلقون آمالهم على من يفشلون في تحقيقها".

سكت الاثنان للحظة، ثم قال سعيد:
"ربما، في النهاية، القضية أكبر من كل الأحزاب.
القضية هي بناء مجتمع يحترم الإنسان والكرامة".

حاتم أجاب:
"هذا صحيح.
لكن إذا استمرت الأحزاب في التمويه والتراجع، سنبقى في دوامة لا نهاية لها".

نظر الاثنان لبعضهما، مع تقدير عميق رغم الخلافات.

بعد أيام من الجلسات والنقاشات التي كانت تجرح روحه وتوقظ داخله أسئلة لا تهدأ، قرر ياسين أن يتجاوز مجرد المشاهدة والكتابة وحدها.

في صباح هادئ، دخل مبنى قديم مهترئ في أحد أحياء المدينة.

كانت واجهته بسيطة، لا لافتات براقة، ولا شعارات مدوية.

باب خشبي يصدر صريرا خفيفا حين فتح.

استقبل بابتسامة هادئة من امرأة في منتصف العمر، ترتدي نظارات كبيرة، وصوتها كان دافئا رغم التعب الذي بدا على وجهها.

قالت:

"أهلا بك في جمعية الحق والكرامة. كيف يمكننا مساعدتك؟"

تنفس ياسين ببطء، ثم قال:

"جئت لأعرف... وأساهم.
لم يعد يكفيني أن أكون متفرجا على معاناة الناس".

دلف إلى غرفة صغيرة مكتظة بالكتب والتقارير والملفات، حيث كان يجلس مجموعة من الشباب والنشطاء، بينهم نساء ورجال، بينهم من يبدو متعبا ومنهم من يشرق عينيه بالأمل رغم كل شيء.

جلس وسطهم، وأخذ يستمع إلى حديثهم عن القضايا التي يعملون عليها:

حالات انتهاك حقوق الإنسان.

ملاحقة الصحفيين.

دعم المعتقلين السياسيين.

حملة من أجل تحسين التعليم والصحة.

توثيق حالات الفساد ونهب المال العام.

تحدث أحدهم، شاب في أواخر العشرينات، اسمه "رامي":

"الأمر ليس سهلا. النظام يحاول دائما التضييق، لكننا هنا لنرفع الصوت، ولنوثق كل انتهاك، صغيرا كان أو كبيرا".

سأل ياسين:

"وكيف يمكنني أن أساعد؟"

ابتسمت المرأة التي استقبلته، وقالت:

"نحتاج أشخاصا يكتبون، يحققون، يتواصلون.
وأشخاصا لديهم الجرأة أن يكونوا هنا، بين الناس".

بدأ ياسين يتنقل بين الملفات، يقرأ تقارير عن حالات اعتقال، عن قمع حرية التعبير، عن قصص لم يسمع بها من قبل.

كانت الكلمات تثقل صدره، لكنها كانت تملأ قلبه بإحساس جديد.

في نهاية الجلسة، قال أحدهم:

"هذه ليست مجرد جمعية.

هذه مساحة للكرامة التي لم تسمع من قبل".

خرج ياسين في المساء، الهواء بارد، لكنه شعر بدفء غريب.
فتح دفتره، وكتب:

"لم أعد متفرجا.
هذه الكلمات، هذه القضايا، أصبحت دمائي.
هذا المكان هو بداية حركتي".

في اليوم التالي، بدأ ياسين يحضر ورشات تدريبية في الحقوق، ويتعرف على محامين ونشطاء، ويبدأ في كتابة تقارير صغيرة، ينشرها على منصات التواصل الاجتماعي.

كل كلمة كان يكتبها كانت بمثابة صرخة داخلية، لكنها كانت أيضا بذرة أمل.

وفي داخله، بدأ يتحسس الطريق الذي لا عودة منه.

بعد أسابيع من مشاركته في الجمعية الحقوقية، أصبح ياسين أكثر حضورا في المظاهرات.

لم يعد يراقب من بعيد، بل صار يرفع صوته مع الجماهير، يحمل لافتاته، ويوثق الأحداث بكاميرته القديمة.

في أحد الأيام الحارة من ربيع 2011، خرج ياسين إلى شارع المدينة الرئيس، حيث دعت الجمعية إلى تجمع سلمي للمطالبة بالإفراج عن معتقلي الرأي.

كانت الأجواء متوترة، قوات الأمن منتشرة بكثافة، والعيون تراقب كل حركة.
صوت الهتافات يعلو، والناس يصرخون مطالبين بحقوقهم، بحرية التعبير، بكرامة الضحايا.

وسط الزحام، كان ياسين يحمل كاميرته، يصور مشاهد التوتر والخوف والأمل، ويرافقه صوت قلبه الخائف والمصمم في آن واحد.

فجأة، دوت صفارات الإنذار، وتقدمت قوات الأمن بسرعة، متجهة نحو المتظاهرين.
بدأت الصراخات والارتباك، ووسط الفوضى، شعر ياسين بذراعين يمسكان به بقوة.

قال ضابط صارم:

"أنت! تعال معنا".

قاوم بصمت، لكن الضغط ازداد.

تم اقتياده بعيدا عن الحشد، إلى سيارة مدنية سوداء.

داخل السيارة، كان الظلام يلف كل شيء، لكن في عينيه كان نور الإصرار لا ينطفئ.

جلس بجانب معتقلين آخرين، أصواتهم مختلطة بين الصراخ والهمس.
قال أحدهم:

"هنا تبدأ المعركة الحقيقية، ليس في الشوارع، بل خلف القضبان".

تذكر ياسين كلمات أصدقائه في الجمعية، وتلك الجلسات التي ملأتها الحيرة والأمل.
فكر في دفاتره، في الكلمات التي لم يكتبها بعد.

وفي عتمة تلك اللحظة، قرر:

"لن أهرب من الحقيقة.
سأواجهها، حتى لو كلفني الثمن".

النخبة الهاربة

في مكتب بسيط تحت إضاءة شاحبة، جلس "سامر" أمام شاشة حاسوبه. قبل سنوات، كان سامر صوتا يحسب له حساب في الأوساط الثقافية والسياسية. شاعر ناقد، كاتب مقالات سياسية، ومحلل اجتماعي صريح.

لكن اليوم، تغير كل شيء.

تحول سامر تدريجيا إلى شخص مختلف، يرتدي قناعا جديدا.

كل صباح، يستيقظ وهو يشعر بثقل الكلمات التي لم تعد ملكه، بل صارت أدوات في يد من لا يرونه.

كان يتلقى تعليمات واضحة:

"ابتعد عن المواضيع الحساسة.
ركز على ما يرضي السلطة.
لا تثير غضب الحاكم، ولا تزعج النظام".

بدأ يكتب مقالات تتحدث عن إنجازات زائفة، وعن تحولات لا وجود لها على الأرض.

صمت عن الفساد، تجاوز قمع الصحافة، وغطى على ملفات الفساد والرشوة.

وفي إحدى الليالي، بعد مؤتمر صحفي رسمي، جلس سامر في ردهة الفندق، يحتسي قهوته المرة، ويحدق في النافذة التي لا تكاد تعكس وجهه.

فكر في ذلك الشاعر الذي كان يوما، الذي كان يرفض السكوت، ويرفض التنازل عن الحقيقة.

ثم تذكر صديقه القديم، ياسين، الذي اختار طريق المواجهة، طريق الجمعية الحقوقية.

سامر شعر بخوف غريب، لا من السلطة فقط، بل من ذلك الصوت الصادق في داخله.

لكن الخوف من الضياع، ومن فقدان لقمة العيش، ومن الوحدة، كان أكبر.

في صباح اليوم التالي، كتب مقالة تحت عنوان:
"الاستقرار أولى من الفوضى"

لكن خلف الكلمات، كان يعرف الحقيقة:
أنه خسر جزءا كبيرا من روحه.

ينتهي بسامر ينظر إلى مرآة مكتبه، يتساءل:

"متى أصبحت الصمت طعنة في ظهري؟
ومتى تحول النقد إلى صدى ميت؟"

في قاعة مؤتمرات أنيقة، تحت أضواء باهتة، تجمع عدد من المثقفين والسياسيين. على المنصة، وقف "الميسر" يعلن بداية الندوة تحت عنوان "دور المثقف في بناء الدولة الحديثة."

جلس سامر بين الحضور، يرتدي بذلته الرسمية، يحاول أن يلبس وجهه الحيادي المعتاد. كانت الندوة تتكرر كل سنة، نفس الكلمات، نفس الشعارات، ونفس الوعود التي لا تتحقق.

بدأت المداخلات:

أحدهم قال بحماس مصطنع:

"يجب على المثقف أن يكون جسرا بين السلطة والشعب".

آخر أضاف:

"التغيير لا يأتي بين ليلة وضحاها، بل بخطوات مدروسة ومدعومة".

سامر أخذ ورقة وبدأ يكتب نقاطا، لكنه شعر أن الكلمات تفتقد للنار التي كان يملكها في الماضي.

ثم جاء دوره.

وقف، وألقى كلمة معدة سلفا، تحدث فيها عن "ضرورة الاستقرار والتنمية"، وعن "تضافر الجهود"، وعن "دور الإعلام في توجيه الرأي العام."

ابتسم الجمهور بلطف، لكن لم يكن هناك أي تأثر حقيقي.

بعد انتهاء الجلسة، في الممرات، التقى سامر بصديق قديم، "عادل"، وهو ناشط حقوقي كان قد استبعد من المشهد منذ سنوات.

قال عادل بنبرة ساخرة:

"ندوة فكرية؟ لا أرى سوى عرض مسرحي.
الكلام كله كلام، والواقع لا يتغير".

رد سامر مترددا:

"أعرف. لكن ماذا أفعل؟"

أجابه عادل بحزم:

"توقف عن أن تكون جزءا من المشكلة،
وابدأ بالبحث عن صوتك الحقيقي، ولو كان صعبا".

عاد سامر إلى مكتبه، جلس وحيدا.

أغلق دفاتره القديمة، وتساءل:

"هل يمكن للمثقف أن يختار الصمت، أم أن الصمت اختيار قاتل؟"

بعد انتهاء الندوة المفرغة، خرج ياسين متثاقلا، يشعر بثقل الكلمات الفارغة التي ملأت القاعة، وكأن الوقت توقف عن الحركة. خرج من باب القاعة، وشوارع المدينة كانت تغسلها أمطار خفيفة، ورائحة الأرض المبللة تعيد إليه ذكريات أيام الدراسة.

في المقهى القديم، حيث كان يرتادها أستاذه "الدكتور هشام"، جلس الرجل بزاوية مظلمة، يمسك بفنجان قهوة بارد، عيناه تختلط فيهما علامات التعب واليأس.

جلس ياسين أمامه، وابتسم بتحفظ.

قال هشام بنبرة هادئة لكن مثقلة بالحزن:

"هل تعتقد أن ما حدث في الندوة له أي معنى؟
هذا الكلام الذي نردده أصبح مجرد قشرة، بلا لب".

تنهد ياسين:

"لماذا استقلت يا أستاذ؟
كنت دائما صوت الحقيقة"...

رد هشام:

"تعبت يا بني.
تعبت من أن أقول ما لا يسمعه أحد، أو ما لا يريد أن يسمعه أحد.
تعبت من أن أكون في دائرة مفرغة من الكلام بلا فعل".

نظر ياسين إلى عيني أستاذه، ورأى فيه صورة قاتمة لما يمكن أن يتحول إليه مثقف عندما يخسر الأمل.

سأل بهدوء:

"هل ترى أن هناك خلاص؟"

أجاب هشام:

"الخلاص؟
ليس في الكلمات التي نلقيها في الهواء.
بل في الأفعال التي نقوم بها في صمت، بعيدا عن الأضواء".

أخذ نفسا عميقا، ثم أضاف:

"كنت أؤمن أن الفكر قادر على تغيير الواقع،
لكن الواقع أثبت لي أنه أقوى من الفكر،
وأن النخب المثقفة أصبحت جزءا من المشكلة، لا الحل".

شعر ياسين بثقل هذه الكلمات، لكنه أدرك أنها تحفزه أكثر.

قال بحزم:

"إذا كان الواقع أقوى، فلا بد أن نكون نحن الأقوى، حتى لو بطرق جديدة".

ابتسم هشام لأول مرة منذ زمن:

"هذا هو الإيمان الحقيقي، يا ياسين.
ولكن عليك أن تكون مستعدا لرحلة طويلة، مليئة بالآلام".

خرج ياسين من المقهى، وتحت زخات المطر، شعر بأن اللقاء كان نقطة تحول.

فتح دفتره وكتب:

"حين تستسلم النخب، يبدأ الشعب في البحث عن بصيص.
هذه المعركة ليست للكلمات فقط، بل للقلوب التي لا تستكين".

بعد أيام من لقائه مع أستاذه هشام، كان ياسين يشعر بثقل أكبر في قلبه، ويدرك أن الصراع ليس فقط في الشوارع أو الجمعيات، بل داخل نفس المثقف.

ذهب إلى منزل صديقه القديم "سامر"، الذي كان ذات يوم صوتا ناقدا وصريحا، لكنه الآن غارق في صمت لا يفسره.

وصل إلى باب الشقة الواقعة في حي متوسط، طرق بهدوء، لكن لا جواب.

عاد وطرق مرة أخرى، وبعد دقائق، فتح له سامر الباب ببطء، وبدون ابتسامة.

جلس ياسين في الصالة، بينما سامر نظر إليه بعينين مخضبتين بالدموع، لكنه لم ينطق بكلمة.

حاول ياسين كسر الصمت:

"سامر، أنت تعرف أن الصمت أحيانا يكون صرخة...
لكن ألا ترى أن الصمت المستمر هو استسلام؟"

ابتعد سامر، جلس على كرسي مقابل، وقال بصوت منخفض:

"كنت أعتقد أن الكلمات لها وزن.
لكن اليوم، كل كلمة تقال تدفع ثمنها باهظا".

تقدم ياسين، محاولا أن يفهم:

"هل تخاف؟"

رد سامر بهدوء:

"الخوف ليس المشكلة. المشكلة هي الشعور بالعجز.
أن ترى الحقيقة أمامك، وتجد نفسك عاجزا عن تغييرها".

تنهد ياسين، وقال:

"هل هذا هو مصير المثقف؟ أن يتحول إلى شاهد صامت على موت الأفكار؟"

رد سامر:

"ليس موتا، بل نفق مظلم.
ولكل نفق نهاية، لكن الطريق مظلم وطويل".

سكت الاثنان لفترة، كأنهما يشتركان في ألم لا يفهمه أحد.

ثم قال ياسين:

"أنا لا أريد أن أكون في هذا النفق وحدي.
أحتاج أن نجد طريقا، معا".

سامر نظر إليه، وقال:

"إذا وجدت الطريق، أبلغني".

خرج ياسين من الشقة، يشعر بثقل الكلمات وصعوبة المعركة.

في الطريق، كتب في دفتره:

"الصمت لا يقتل فقط الكلمة، بل يقتل الروح.
لكن في عمق الصمت قد نجد صوتا جديدا يولد من رحم الألم".

في قاعة صغيرة مستأجرة بأحد أحياء المدينة القديمة، تجمع حوالي عشرة شبان وشابات، يحملون دفاترهم وأقلامهم، وبعضهم يحمل أجهزة لوحية وهواتف ذكية. كانت الغرفة مكتظة، لكن الهواء فيها كان مليئا بالحماس والإصرار.

في زاوية الغرفة، جلس ياسين، ينظر حوله إلى وجوه تعرف الألم نفسه، لكن تتلألأ فيها شرارة الأمل.

بدأ اللقاء بحديث من "رنا"، فتاة عشرينية، صاحبة صوت قوي وثقة كبيرة:

"لقد تعبنا من الصمت. تعبنا من الخوف من التعبير عن رأينا.
نحن لن نكون أدوات في يد أحد، ولا سنخاف من الكلمة".

رد "مازن"، شاب من الطبقة الوسطى، بحماس:

"الكتابة هي سلاحنا.
قلمنا هو المدفع.
لن نسمح لهم أن يسكتونا".

ابتسم ياسين، وأخذ الكلمة:

"كل ما مررنا به، من صمت المثقفين، وخيانة الأحزاب، وقمع الحريات، يجعلنا ندرك أن صوتنا هو الأمل الوحيد".

بدأت "نجلاء"، طالبة جامعية، تسرد تجربتها:

"كلما حاولت التعبير عن آرائي على الإنترنت، تعرضت للتنمر، وللتهديد.
لكن اليوم، هنا، أشعر أننا معا، أقوى".

سأل ياسين:

"هل أنتم مستعدون لخوض هذه المعركة؟"

أجاب الجميع بنعم حازم.

ثم قال "رامي"، ناشط حقوقي متطوع:

"لن تكون المعركة سهلة.
لكن السكوت أشد فتكا.
نحن هنا لنثبت أن الكلمة حية، وأن الحرية تستحق الثمن".

نظرت رنا إلى الجميع وقالت:

"فلنبدأ بالكتابة، بالبحث، بالتحقيق،
ولننقل صوت الناس الذين لا صوت لهم".

بدأوا يفتحون دفاترهم، ويكتبون، يناقشون أفكارا، وينسقون خططا لنشر مقالات، تقارير، وشهادات حية من الشارع.

في تلك اللحظة، أدرك ياسين أن الثورة لم تمت، بل تحولت إلى كلمات، إلى أفكار، إلى أفعال صغيرة، لكنها مؤثرة.

وفي قلب تلك الغرفة المظلمة، ولد صوت جديد، صوت لا يخاف.

كتب ياسين في دفتره:

"في زمن الخوف، تكون الكلمة أملنا.
وفي زمن الصمت، تكون الكتابة ثورة".

انهيار الصحافة

في قلب المدينة القديمة، حيث تتشابك الأزقة الضيقة والمباني الباهتة، تقع جريدة "النبض الحر" المستقلة. مبنى قديم، جدرانه تحمل آثار الزمن، لكن روحه كانت حية، ينبض بصوت الحقيقة التي يرفضها الواقع.

في صباح يوم رمادي، كان ياسين وبعض زملائه يتحركون داخل المطبعة الصغيرة، يراجعون التقرير الأخير الذي يكشف شبكة فساد كبيرة في مؤسسة حكومية. كل كلمة في التقرير كانت تحمل وزنا ثقيلا، وكل جملة كانت تحمل تهديدا للممسكين بالسلطة.

كانت الأجواء مشحونة بالحماس والخوف في آن واحد.

ياسين يضغط على فنجان القهوة وهو يراقب شاشة الكمبيوتر، بينما "رنا" تراجع النص بعناية، و"رامي" يتصل بأحد المصادر السرية لتأكيد المعلومات.

فجأة، انقطع التيار الكهربائي في المبنى، وعم الظلام دقائق قليلة، ليعود بعد لحظة، لكنه لم يكن عاديا.

سمعوا ضجيجا في الخارج، أصوات خطوات ثقيلة تتصاعد، صدى صفارات تحذير تملأ الشارع.

طار رامي نحو النافذة، ثم عاد وهو يلهث:

"قوات الأمن قادمة! إنه اقتحام".

تجمع الجميع في غرفة الاجتماعات الصغيرة، وكانت أنفاسهم تتسارع.
على الجدران، لافتات كتب عليها "الصحافة حرية"، و"الكلمة سلاح."

دخلت قوة كبيرة من رجال الأمن، يرتدون خوذات وأزياء قتالية، وتحركوا بسرعة نحو المطبعة والمكاتب.

صرخ قائدهم بصوت جهوري:

"إخلوا المبنى فورا! هذه عملية أمنية لتأمين المكان"!

حاول ياسين أن يوقفهم، وقال بحزم:

"نحن نعمل بحرية، نكتب الحقيقة. لا حق لكم في إغلاق الصحيفة".

رد أحد الضباط ببرود:

"أوامر عليا. لا مكان لكم هنا".

بدأوا في مصادرة الحواسيب، تحطيم الأجهزة، ورفع الأوراق.

رنا حاولت مقاومة، لكنها سحبت بقوة إلى الخارج، بينما ياسين وقف يصور ما يحدث بكاميرته القديمة.

وسط صراخ وتصفيق من عدد من المتفرجين الذين تجمعوا أمام المبنى، تم اقتياد ياسين إلى خارج الجريدة، حيث كانت سيارات مدنية تنتظر.

شعر قلبه ينبض بقوة، بينما كان يرى دموع بعض الزملاء.

قبل أن يجبر على الدخول في سيارة الشرطة، التفت إلى السماء، وقال في نفسه:

"هذه ليست نهاية الكلمة، بل بداية صراع أكبر".

داخل السيارة، كان الصمت يلف الجميع.

لكن في عيني ياسين، كان نور التحدي يشتعل،

مع يقينه أن الكلمة ستصل مهما حاولوا إسكاتها.

في زنزانة صغيرة بالكاد تضيئها شعاع ضوء خافت من النافذة الصغيرة، جلس ياسين على الأرض، ظهره يستند إلى جدار بارد، وروحه تحترق بين نار السجن وصوت الحرية المكبوت.

كان يحمل دفتره القديم، تلك الورقة البيضاء التي لم تملأ بعد، لكنه يعلم أن الكلمات القادمة ليست مجرد حروف، بل صرخات مكتومة تمزق صمت القيد.

أخرج قلمه ببطء، وبدأ يكتب:

"في عتمة القيد، يولد الضوء...
حين تسجن الأفكار، تزداد حدة النور،
والحق لا يقتل بالحديد،
بل بالإصرار والكلمة التي لا تموت".

كان يدرك تماما أن هذا المقال ممنوع، وأن نشره يمكن أن يكلفه المزيد من المعاناة، لكنه لم يكن يملك خيارا آخر.

تذكر كيف اقتحموا مقر الصحيفة، كيف سلبوا حريته وحريتهم، وكيف أن الكلمات أصبحت جريمة في زمن الصمت.

في ذهنه، استعرض مشاهد الندوة الفارغة، الصمت الثقيل لصديقه سامر، والإحباط الذي حاول أن يقاومه أستاذه هشام.

لكنه كان يرفض الاستسلام.

توقف عن الكتابة للحظة، ونظر عبر النافذة الصغيرة إلى السماء الرمادية.

أغمض عينيه وتخيل شعبا يرفع صوته بلا خوف، شبابا يكتبون، نساء تردد كلمات الحرية، وأطفالا يرسمون مستقبلا بلا قيود.

عاد إلى الدفتر، واستمر:

"هذه الكلمات التي تحاول السلطة قتلها،
هي نبض حياة لا يعرف الاستسلام.
الثورة ليست فقط في الشوارع،
بل في القلوب التي تصر على النبض،
في الأقلام التي ترفض الصمت،
وفي العقول التي لا تقبل الخنوع".

بجانب ياسين، كان هناك زميل معتقل آخر، "فارس"، أشار إليه بحذر وقال:

"أنت تكتب كما لو أنك حر، لكننا هنا سجناء".

ابتسم ياسين بهدوء:

"في داخلي، وروحي، لا أحد يستطيع أن يسجنني".

بعد ساعات طويلة من الكتابة، وضع الدفتر بعناية في جيبه، وعرف أن هذه الكلمات ستجد طريقها إلى العالم مهما كانت المخاطر.

في الليل، وبين صدى الأصوات الخافتة داخل السجن، تنامى في قلبه شعور جديد.

شعور أن الكلمة، مهما حاولوا إسكاتها، ستظل تضيء الظلام.

في مكتب صغير بحي الصحافة المستقل، كانت "ليلى" تجلس أمام حاسوبها المحمول، وجهها يحمل آثار التعب والسهر، لكن عينيها تتلألأن بعزم لا ينكسر.

كانت ليلى واحدة من الصحفيات القلائل اللواتي لم يتخلين عن مهمة كشف الحقيقة، رغم كل المخاطر التي تحدق بها.

بعد يوم طويل من التحقيق في قضية فساد مشابهة لتلك التي كتب عنها ياسين، تلقت رسالة مشفرة عبر هاتفها الذكي.

فتحت الرسالة بيد مرتعشة، وقرأت الكلمات التي جمدت دمها:

"توقفي فورا عن نشر هذا التحقيق، وإلا ستكون العواقب وخيمة".

قلبها تردد نبضاته، لكنها لم تسمح للخوف أن يسيطر عليها.

اتصلت بصديقها "رامي"، الذي كان من بين المجموعة التي التقت بها ياسين في اللقاء الأخير.

قالت بصوت منخفض:

"رامي، تلقيت تهديدات. الوضع أصبح خطيرا".

أجابها وهو يحاول تهدئتها:

"ليلى، نحن جميعا في نفس المعركة. لا تتركيهم يخيفونك".

في تلك الليلة، لم تستطع ليلى النوم.

كانت تفكر في ياسين، في رفاقه المعتقلين، وفي الأمل الذي يشع من كلماتهم رغم القيد.

في صباح اليوم التالي، أثناء خروجها من منزلها، لاحظت سيارة سوداء تقف عند الزاوية.

رجل في ملابس مدنية كان يراقبها بصمت.

تسارعت خطواتها، لكنها شعرت بثقل الخوف يتسلل إلى جسدها.

في المقهى القريب، التقت بزميلتها "رنا"، وشاركتها ما حدث.

رنا أمسكت يدها وقالت:

"الخوف موجود، لكن الشجاعة أقوى. نحن معا".

قررت ليلى الاستمرار في تحقيقها، رغم التهديدات، وكتبت تقريرا مطولا يفضح الفساد، مستخدمة مصادر سرية وأدلة دامغة.

أرسلت التقرير إلى الصحيفة، وهي تعلم أنه ربما يكون آخر عمل لها قبل أن تواجه مصيرا مجهولا.

في لحظة هدوء، نظرت إلى السماء وقالت:

"إذا كان الثمن حياتي، فلتكن كلماتي شاهدة".

في أروقة محطة تلفزيونية حكومية كبيرة، كانت الأضواء الساطعة والكاميرات ترتب صفوفها لاستقبال المذيع "سامي"، أحد أبرز وجوه الإعلام الرسمي.
كانت عيناه تعكس مزيجا من الحيرة والتردد، وهو يتجه نحو مكتبه بعد انتهاء إحدى البثوث المباشرة.

قبل أن يغلق الباب خلفه، دق على الباب بقوة.

دخل رجل في منتصف العمر يرتدي بدلة داكنة، يحمل نظرة صارمة، عرف سامي فورا أنه من مسؤولي الإدارة العليا.

قال الرجل بحزم:

"سامي، لديك تعليمات جديدة.
لا تتحدث عن قضايا فساد الصحافة المستقلة أو التحقيقات التي تهز البلاد".

ابتلع سامي ريقه، وأجاب بتوتر:

"لكن الجمهور يستحق الحقيقة. والناس ينتظرون التقارير التي توضح ما يحدث".

أجابه الرجل ببرود:

"الحقيقة التي نسمح بنشرها هي فقط تلك التي توافق عليها الإدارة.
لا تحاول دفع الأمور إلى الأمام.
السكوت في هذه المرحلة هو الأمر الوحيد المقبول".

جلس سامي بهدوء، وحاول أن يجد الكلمات التي تبرر موقفه لنفسه، لكنه شعر بالخيانة التي تكبر داخله.

في اللحظة التي غادر فيها الرجل المكتب، جلس سامي أمام شاشة الكمبيوتر، مفتوحا على تقرير يخص التحقيقات التي تقوم بها الصحفية ليلى.

قرأ أجزاء من التقرير، وتذكر كلماتها عندما أخبرته عن التهديدات التي تلقتها.

فكر في زملائه في الصحافة المستقلة، وفي ياسين الذي اعتقل بسبب مقاله.

تنهد بعمق، وقال في نفسه:

"هل أصبحنا مجرد أدوات؟
هل سيحكم علينا بالسكوت بدل الكلام؟"

في تلك اللحظة، بدأ يشعر بثقل المساء، وشبح الخوف الذي يلف المكان.

لكن داخل قلبه، كان هناك صوت صغير لا يموت، صوت يقول:

"حتى لو حاولوا إسكاتنا، الحقيقة لا تموت".

خرج من مكتبه، وهو يعرف أن الطريق أصبح أكثر خطورة، وأن المواجهة لم تنته بعد.

في شارع مزدحم وسط المدينة، حيث يختلط صخب السيارات بأصوات الباعة والمتظاهرين، وقف رجل في منتصف الرصيف، يمسك صحيفة يومية مستقلة بين يديه. كان وجهه مغطى ببعض الغبار، ويداه ترتجفان قليلا.

الصحيفة كانت آخر نسخة منشورة، تحمل عناوين جريئة تكشف ملفات فساد وتجاوزات السلطة.

وقف الرجل، ينظر إلى الصحيفة بعمق، ثم بدأ ببطء يمزق صفحاتها واحدة تلو الأخرى.

كانت الحركات ثقيلة، وكأن كل تمزيق هو تمزيق لشيء أكبر من الورق.

المارة توقفوا للحظة، يراقبون المشهد المألوف والغريب في الوقت ذاته.

سأل أحدهم بجانب ياسين، الذي كان يشاهد المشهد من بعيد:

"لماذا يمزقها؟ هل لا يريد الحقيقة؟"

رد ياسين بهدوء:

"ليس هذا ما يعنيه التمزق، بل ربما هو غضب مختلط بالخوف، أو استسلام لقهر طويل".

مر الرجل أمام ياسين، وتبادل الاثنان نظرة قصيرة، في تلك اللحظة رأى ياسين في عينيه مرارة وحيرة عميقة.

في داخله، كان هذا الرجل يمثل جزءا من الشعب، جزءا محطما بين موجات الفساد، القمع، والخيبات المتكررة.

تمزيق الصحيفة كان رمزية لقطع الأمل، لكنها كانت أيضا صرخة مبحوحة:

"هل من يسمعنا؟"

اقترب ياسين منه وقال بهدوء:

"لماذا تمزق الصحيفة؟"

ابتسم الرجل، وبتعبير مرير قال:

"لقد تمزقت أحلامنا مع كل كلمة تكتبها هذه الصحيفة.
ولكن في نفس الوقت، هذه الكلمات هي ما يبقيني على قيد الحياة، رغم الألم".

توقف الرجل قليلا، ثم تابع:

"تمزيق الصحيفة ليس رفضا لها، بل هو صرخة من القلب المثقل بالخيبات".

قال ياسين:

"الكلمة حية، حتى وإن تمزقت الأوراق".

نظر الرجل إلى الأفق وقال بصوت خافت:

"والأمل حزين، لكنه لا يموت".

مرت لحظات صمت، والناس بدأوا يتحركون من جديد، كل في طريقه.

وقف ياسين ينظر إلى الصحيفة الممزقة على الأرض، وكتب في دفتره:

"حين تمزق الصحيفة، لا تمزق الكلمة، بل تمزق صدورنا.
وهذه الصدور تحمل كل ما تبقى من أمل في هذا الزمن الصعب".

السوق السوداء للوطن

في قاعة البرلمان الكبيرة، حيث تلتقي أصوات النواب، تتصاعد حدة النقاشات وتزدحم مداخلات الكتل السياسية، كان الجو مشحونا بالتوتر والقلق. الضوء الأبيض القوي يسلط على منصة المتحدث، حيث وقف "النائب كريم"، يمثل المعارضة، يحمل بين يديه نسخة من تقرير رسمي صدر حديثا.

بدأ كريم كلامه بصوت واضح وقوي:

"أيها السادة، هذا التقرير الذي أمامكم ليس مجرد وثيقة إدارية، بل هو مرآة لواقعنا السياسي والاجتماعي، يعكس حجم الفساد، والمحسوبية، والتواطؤ الذي يهدد نسيج الدولة".

أشار إلى الصفحات المملوءة بالأرقام والأسماء والوقائع، وقال:

"هذه الأرقام لا تكذب. أموال عامة استخدمت لشراء الولاءات، مشاريع تنموية متوقفة، وحقوق المواطنين تُهدَر".

وقف "النائب عادل"، من الحزب الحاكم، رافعا يده بنبرة دفاعية:

"هذا التقرير مبالغ فيه، ويحاول تشويه صورة الدولة. نحن نعمل جاهدين على الإصلاح، والتحديات كبيرة، لكننا نسير على الطريق الصحيح".

تدخلت "النائبة سلمى" من تيار مستقل، وقالت:

"لا يمكننا إنكار وجود مشاكل، لكن السكوت عنها لن يحل شيئا. يجب أن نواجه الحقائق بشجاعة، ونتخذ إجراءات حاسمة".

ارتفعت الأصوات، وتبادلت الأطراف الاتهامات، وسط جو من الانقسام والاحتقان.

في زاوية القاعة، جلس "ياسين" في صفوف الحضور كمتابع ومراقب، يدون الملاحظات بدقة، وهو يشعر أن هذه المعركة على الحقيقة هي امتداد لما حدث في الشارع وفي الصحافة.

بعد نقاش طويل، أعلن رئيس البرلمان تعليق الجلسة، ودعا الجميع لاستئنافها في جلسة مقبلة.

خرج الحضور من القاعة، حيث كانت المداخلات تتداول في الممرات، وأحاديث متوترة تعبر عن الاستياء والشكوك.

تحدث بعض النواب عن ضرورة حماية الصحفيين وحرية التعبير، بينما آخرون حذروا من "تجاوز الخطوط الحمراء" التي قد تزعزع الاستقرار.

في تلك اللحظة، شعر ياسين أن الصراع الحقيقي لم يبدأ بعد، وأن الكلمة الحرة تحتاج إلى دعم أعمق وأقوى.

كتب في دفتره:

"في البرلمان كما في الشارع، الصراع على الحقيقة هو معركة بلا نهاية، والحقيقة التي نحتاجها ليست فقط في التقارير، بل في إرادة التغيير التي لا تموت".

في أروقة وزارة التنمية، كان "حسن" يجلس خلف مكتبه المرتب بدقة، ملفات كثيرة متناثرة أمامه، تتعلق بمشاريع عامة ومتابعة تنفيذها.

حسن، موظف حكومي قديم، يعرف تفاصيل كثيرة عن فساد بعض المسؤولين، لكنه اختار دائما الصمت حفاظا على وظيفته وحياته.

في الأيام الأخيرة، بدأت تسريبات وصلت إلى حسن من مصادر داخل الوزارة، تفيد بوجود تجاوزات في ملف مهم مرتبط بصفقات كبيرة تخص مشاريع البنية التحتية.

شعر حسن بثقل المسؤولية، وقرر أن يوثق هذه المعلومات بدقة، آملا أن تستخدم لإصلاح الوضع.

لكن سرعان ما تلقى رسالة غير مباشرة من أحد كبار المسؤولين عبر وسيط:

"أفضل لك أن تلتزم الصمت. الأمور لا تحتاج إلى تعقيد".

حاول حسن التمسك بمبادئه، لكنه بدأ يشعر بالضغط المتزايد.

في اجتماعات رسمية، لاحظ أن زملاءه يتجنبون التحدث، وأصواتهم خافتة، كما لو أن كل الكلام مراقب.

ذات مساء، بينما كان يعمل على إعداد تقرير يوضح المخالفات، طرق عليه باب مكتبه فجأة.

دخل عليه مديره "سعيد"، وهو يرتدي تعبيرا جادا:

"حسن، وصلتني تعليمات عليا.
أريد منك أن توقف كل نشاطاتك المتعلقة بهذا الملف".

رد حسن بحزم:

"هذه معلومات مهمة، يجب أن تصل إلى الجهات المختصة".

ابتسم سعيد بابتسامة باردة:

"الجهات المختصة؟! أحيانا، النية لا تكفي، والتوقيت لا يسمح بذلك.
الأمر يتعلق بحماية الاستقرار".

ترك المكتب وهو يشعر بأن العالم من حوله ينهار، وأن الصمت ليس خيارا بل فرض.

في الأيام التالية، لاحظ تغييرات غريبة في مهامه، وأُجبر على حضور اجتماعات إدارية تكرس خنق الأصوات الحرة.

ذات ليلة، جلس حسن في منزله، أمام نافذته التي تطل على المدينة، وكتب في دفتره:

"عندما يجبر الموظف النزيه على الصمت، لا يموت الصدق،
بل يولد في قلبه ثورة صامتة، تنتظر اللحظة المناسبة لتنفجر".

عرف حسن أن المعركة لم تنته، لكنها ستكون أعنف وأكثر وحشية.

في قاعة فسيحة من زجاج وحديد في مبنى حكومي حديث، جلس "ياسين" بوجه هادئ لكن عيناه كانتا تعكسان توترا خفيا.

كان ينتظر دخول "المدير عام سعيد الطيبي"، المسؤول الذي طالما ارتبط اسمه بشبهات فساد وتجاوزات إدارية.

دخل المدير ببدلة أنيقة وابتسامة مصطنعة، وأدار يده لتحية باردة.

قال سعيد بنبرة هادئة، لكنها تحكمها خبرة طويلة في التلاعب:

"أهلا بك يا ياسين. سمعت أنك تتحرك كثيرا في القضايا الحساسة".

أجاب ياسين بثبات:

"أنا هنا لأطلب توضيحات حول ما يقال عن تجاوزات في مشاريع التنمية".

ابتسم سعيد ابتسامة خبيثة:

"التجاوزات؟ هل تعتقد أن الأمور تسير بلا قواعد؟
النظام لا يسمح بهذا، وكل شيء تحت السيطرة".

نهض سعيد، وبدأ يمشي ببطء في الغرفة، وأضاف:

"لكن يجب أن تعلم أن هناك ثمن لكل خطوة تخطوها.
وفي بعض الأحيان، من الأفضل أن تبقى الأمور على حالها".

نظرات ياسين لم تغادر وجه المدير، وقال بهدوء:

"لن أتراجع عن حقي في معرفة الحقيقة، حتى لو كانت مكلفة".

اقترب سعيد، وانخفض صوته:

"أنا لا أهددك، لكن الحكمة تقول إن من يحاول زعزعة النظام، سيجد نفسه وحيدا".

توقف ياسين، ثم قال بثقة:

"الوحدة ليست مخيفة عندما تكون مع الحق".

رفع سعيد يده في إشارة، ثم تابع:

"ولكن لا تنس أن النظام يعرف كيف يحمي نفسه".

خرج سعيد من الغرفة، تاركا ياسين يفكر في الكلمات، وفي التحديات التي تواجهه.

بمجرد إغلاق الباب خلفه، جلس ياسين على الكرسي، وأخرج دفتره وكتب:

"في مواجهة الفساد، لا يكفي أن تكون شجاعا بالكلمة،
بل يجب أن تكون أكثر شجاعة في تحمل العواقب".

كان اللقاء بداية لحرب صامتة، لم تكن فيها الأسلحة سوى الحقائق والجرأة.

في قاعة المحكمة الكبرى، حيث الجدران العالية والقاعات الفسيحة التي تبتلع الأصوات، تجمع الحضور بكثافة غير معتادة.

المقاعد المخصصة للجمهور كانت مزدحمة، الصحفيون يتزاحمون للحصول على مقاعد، وأصوات الهمس تنتشر في الأجواء كما لو كانت طقوسا سابقة لمعركة قادمة.

في منصة القضاة، جلس القاضي "رئيس المحكمة" بنظرة رسمية متزنة، مرتديا روب العدالة الأسود، لكنه بدا كمن يلعب دورا باردا في مسرحية مسيطر عليها من خارج هذه الجدران.

جانب القاضي، وقف المحامي الدفاعي "يوسف العلوي"، رجل في الخمسينيات من عمره، ببدلة أنيقة وأسلوب متحدث لبق، يبتسم بثقة بينما ينظر إلى الوثائق التي بين يديه.

على الجانب الآخر، يجلس المدعي العام، شاب متوتر قليلا، يحاول أن يظهر جديته في هذه المعركة التي تبدو محسومة من البداية.

داخل القاعة، كان "ياسين" يجلس في الصفوف الخلفية، قلبه ينبض بسرعة، يدون ملاحظات بكل تركيز، بينما يراقب الوجوه التي تمثل الطبقة السياسية والاقتصادية الحاكمة.

بدأت الجلسة، ورفع القاضي يده معلنا:

"نبدأ بجلسة الدفاع عن المتهمين في قضايا الفساد المتعلقة بصفقات المشاريع العمومية".

وقف المحامي يوسف، وتحدث بصوت واضح:

"أيها السادة، لا يمكن أن نسمح بأن يدان موكلونا استنادا إلى اتهامات غير مثبتة، وشهادات مجهولة المصدر.
هذه المحكمة يجب أن تكون محكمة عادلة، لا مسرحا لتصفية الحسابات السياسية".

أشار إلى أوراق بحجم سمين قائلا:

"التقارير الرسمية التي نسبت إلى المتهمين مليئة بالأخطاء والمغالطات.
وقد تم إهمال أدلة تثبت براءتهم".

رفع المدعي العام صوته، ورد بغضب:

"الفساد واقع ملموس، والأدلة كثيرة، وشهادات شهود عديدة.
إن إبراء المتهمين يعني تغطية جرائم تضر بالمصلحة العامة".

لكن القاضي تدخل بهدوء، وقال:

"كل ما يقدم هنا يدرس بدقة، ونؤكد على أن العدالة لا يمكن أن تستعجل".

توالت المرافعات، مع تحريف للحقائق، وتقارير مدفوعة الثمن، وتهديدات غير معلنة، حتى بدا أن الجلسة تحولت إلى مسرحية يحرك خيوطها الآخرون.

في إحدى الفترات، أُتيحت الفرصة لياسين لتقديم شهادة كمراقب مستقل.

وقف، وخاطب القاعة:

"أنا لست محاميا، لكن ما شاهدته من تقارير واستجوابات يؤكد وجود شبكة معقدة من الفساد والمحاباة.
ليس فقط من خلال الأرقام، بل في حياة الناس التي تدمرت بسبب هذه الجرائم".

سمع بعض الحضور تهمس:

"هل يعقل أن يجرؤ شاب عادي على الحديث في هذه القاعة؟"

لكن ياسين استمر، وقال:

"هذه القضية ليست فقط قانونية، بل أخلاقية، وإنصاف الضحايا هو مسؤوليتنا".

نظرات بعض النواب والمسؤولين جمدت، وبدأت موجة من الهمسات والتمتمات تنتشر.

لكن القاضي رفع يده، وقال:

"الجلسة مستمرة، والقرار سيصدر في وقته".

بعد ساعات من النقاشات، وأمام ضغوط سياسية واقتصادية، أُعلن عن تأجيل الحكم.

خرج الحضور من القاعة، لكن ياسين شعر بثقل ثقيل، وكأن العدالة تأخرت، أو حتى تأجلت.

في الخارج، تجمع عدد من الصحفيين، وسألوه عن رأيه.

قال ياسين بصوت هادئ لكنه عميق:

"هذه الجلسة لم تكن سوى مشهد من مشاهد تمويه الحقيقة.
العدالة لا تباع ولا تشترى، لكن في بلدنا، هي لعبة تدار خلف الأبواب المغلقة".

المشهد أنهى وسط هتافات من نشطاء يطالبون بمحاربة الفساد الحقيقي، وصيحات تطالب بالشفافية.

كتب ياسين في دفتره:

"في محكمة تغلق الأبواب، لا ننتظر حكما، بل ننتظر ثورة الكلمة".

بعد ساعات متأخرة من الليل، كان ياسين يجلس في غرفة صغيرة مهجورة، مضاءة بضوء خافت من مصباح مكتبه القديم.

الأوراق تتناثر حوله، والكمبيوتر المحمول أمامه يعرض ملفا ضخما يحتوي على تحقيقات وأدلة عن شبكة فساد معقدة تربط بين مسؤولين كبار وشركات مقربة من السلطة.

كان قلبه ينبض بسرعة، لكنه كان يشعر بثقة نادرة، هذه المرة كان يحمل سلاح الكلمة بكل ثقلها.

تلقى قبل أيام عدة رسالة تهديد عبر هاتفه:

"توقف عن نشر ما لديك، وإلا ستكون العواقب وخيمة".

لكن ياسين، رغم خوفه، رفض أن يترك الحقيقة مدفونة.

بدأ بكتابة مقدمة الملف، يشرح فيها بأسلوب واضح ومباشر مدى حجم الفساد وتأثيره على حياة المواطنين.
استخدم بيانات رسمية، شهادات مسربة، وتحليلات دقيقة، مع صور ومستندات تؤكد كل نقطة.

توقف للحظة، ونظر إلى نافذة الغرفة حيث كانت أضواء المدينة تتلألأ، تذكر كل من تعرضوا للقمع، وكل من سجنوا أو صمتوا.

واصل الكتابة، وأرفق شهادات من شهود عيان، وعناوين توضح الصفقات المشبوهة، والاختلاسات المالية.

أرسل الملف عبر قنوات آمنة إلى عدة منابر إعلامية مستقلة وصحفيين معروفين بالمصداقية.

في صباح اليوم التالي، بدأت عناوين الصحف والمواقع الإلكترونية تملأ الشاشات:

"فضيحة فساد تهز المؤسسة الحكومية العليا".

"وثائق سرية تكشف تلاعبا بالمال العام".

توالت ردود الفعل، بين من حاول التشكيك في المعلومات، ومن طالب بفتح تحقيقات رسمية وشفافة.

في وسط هذا الزخم، جلس ياسين في مقهى صغير يراقب ردود الأفعال عبر هاتفه.

شعر بمزيج من القلق والفخر، لكنه كان يعلم أن المعركة بدأت فعلا.

تلقى مكالمة من رقم مجهول، فحواه تحذير واضح:

"نحن نراقبك، توقف فورا وإلا لن نكون لطفاء".

ابتسم ياسين في وجه التهديد وقال بصوت هادئ:

"الكلمة أقوى من الخوف".

عاد إلى كتابته، وأخبر أصدقاءه بأن الطريق سيكون صعبا، لكن لا خيار إلا المضي قدما.

في تلك اللحظة، أدرك أن المعركة ليست فقط من أجل كشف الفساد، بل من أجل استعادة الكرامة والعدالة لشعب بأكمله.

كتب في دفتره للمرة الأخيرة ذلك المساء:

"حين تصمد الكلمة أمام الخوف، يولد الأمل.
وهذه هي الحقيقة التي لن تسقط مهما حاولوا".

المدرسة مقبرة الأحلام

داخل جدران مدرسة قديمة متواضعة في قرية نائية، يتجمع عشرات الأطفال على مقاعد خشبية مهترئة. كان الفصل صغيرا جدا بالنسبة لعدد الطلاب، والضوء الطبيعي يكاد لا يخترق النوافذ المغبرة.

الألواح السوداء مغطاة بالكتابات القديمة، وصوت المعلم عبد الله يتردد في المكان بحماس، رغم الظروف الصعبة.

قال المعلم بصوت هادئ لكنه مفعم بالأمل:

"اليوم سنتعلم كيف يمكن للعلم أن يكون طريقنا للخروج من هذا الظلام".

لكن الطلاب، بعيونهم المتعبة من طول الطريق والظروف الصعبة، كانوا يعانون من التركيز بسبب الزحام والضوضاء.

جلست “سميرة”، فتاة صغيرة، تحتضن حقيبتها البالية، وتحاول الاستماع رغم أصوات الضجيج من الخارج، حيث يلعب الأطفال في الساحة المتواضعة.

في زاوية الفصل، كان الطالب علي يحاول رفع يده للرد على سؤال المعلم، لكنه تراجع بسبب عدم وضوح الشرح وكثرة الطلاب.

فتح المعلم كتابه القديم وقال بصوت خافت:

"نحن هنا لنبني مستقبلنا، لكن يجب أن نتخطى هذه الصعوبات".

بينما كانت "سميرة" تحدق في دفترها المتآكل، كانت تتساءل عن أحلامها، وعن حياة أفضل بعيدا عن الفقر والجهل.

في الخارج، مر والدها متعبا من العمل في الحقول، يلوح لها بإشارة دعم، لكنها شعرت بثقل المسؤولية على كتفيها.

التفت المعلم إلى الطلاب وقال:

"هذه ليست فقط دروس، إنها معركة نعيشها من أجل كرامتنا وحقنا في التعليم".

وسط الزحام، ظهر صوت من النافذة:

"هل من أحد يستطيع إحضار بعض الكتب الجديدة؟"

رد المعلم بحزن:

"الكتب نادرة، والموارد محدودة، لكن إصرارنا هو ما يصنع الفرق".

رغم كل شيء، كان القسم ينبض بالحياة، أطفال يحملون في قلوبهم آمالًا رغم القسوة، ومعلم يحاول أن يكون شعلة نور وسط الظلام.

كتب المعلم في دفتره بعد نهاية الحصة:

"بين جدران هذا القسم، تكمن بذور التغيير،
لكنها تحتاج إلى من يزرعها بحب وإيمان".

في ركن صغير من حجرة المعلمين في المدرسة نفسها، جلس عبد الله متكئا على الطاولة الخشبية القديمة، عيناه تحملان عبء سنوات من الصبر والتعب.
الغرفة ضيقة وبسيطة، بها رائحة الكتب القديمة وأوراق التصحيح التي تراكمت فوق الطاولات.

بجانبه، جلس "سعيد"، زميله وصديقه المقرب، يراقبه بقلق، وهو يعرف جيدا ما يجول في صدر عبد الله من خيبات أمل.

بدأ عبد الله بالكلام بصوت منخفض، يكسوه تعب النفوس:

"سعيد، أحيانا أشعر أنني أقاتل في معركة بلا نهاية.
هؤلاء الأطفال، أحلامهم كبيرة، ولكن الواقع يكسرها في كل لحظة".

رفع سعيد حاجبيه، وقال بحزن:

"أنا أعلم، يا عبد الله. نحن نحاول أن نزرع الأمل في أرض جرداء.
لكن أين الدعم؟ أين الموارد؟"

أدار عبد الله رأسه ببطء، ونظر من النافذة إلى ساحة المدرسة حيث يلعب الأطفال، بعضهم بأقدام عارية، وبعضهم يضحكون رغم كل شيء.

أضاف بصوت يشوبه الألم:

"كل يوم أسمع قصصهم عن الفقر، عن والديهم الذين يعملون بلا توقف،
عن الحلم بالهجرة، بالهرب من هذه الحياة القاسية".

سحب ورقة من على الطاولة، كان عليها جدول الحصص مع نقص واضح في الكتب والمواد التعليمية.

قال:

"لا نملك حتى كتب كافية، ولا تجهيزات تساعدنا على تعليمهم بشكل مناسب".

سعيد تنهد، وقال:

"وأكثر ما يؤلمني هو أن النظام يتجاهلنا.
يدعون أنهم يسعون لتطوير التعليم، لكن الواقع غير ذلك".

تبادل الاثنان النظرات، وكأنهما يشتركان في ألم كبير لا يمكن التعبير عنه بالكلمات فقط.

قال عبد الله بصوت متقطع:

"أحيانا أفكر أنني أخون أمانتي، أنني لا أفعل ما يكفي.
أرى في عيونهم ذلك السؤال الصامت: لماذا نحن هكذا؟ لماذا لا نجد فرصة؟"

رد سعيد بحزم:

"لا يا عبد الله، أنت بطل بالنسبة لهم.
وجودك يعني أكثر مما تتخيل. أنت تزرع الأمل وسط اليأس".

ابتسم عبد الله بمرارة، وقال:

"لكن الأمل وحده لا يكفي، يحتاج أطفالنا إلى حياة كريمة، إلى دعم حقيقي، ليس فقط كلمات جوفاء".

سكتا لبرهة، بينما صوت الأطفال من الخارج يذكرهم لماذا استمروا رغم كل شيء.

في لحظة صمت، رفع عبد الله يده، وكتب في دفتر صغير بجانبه:

"في ظل الفقر والحرمان، يبقى التعليم معركة الأمل،
لكن هل من يسمع صرخات أولئك الذين يزرعون المستقبل؟"

خرج الاثنان من غرفة المعلمين، متجهين نحو الفصل، حيث ينتظر الأطفال مستقبلهم الضائع بين الجدران المتهالكة.

في ظلام غرفة صغيرة بحي فقير في القرية، كان "سعيد"، شاب في السادسة عشر من عمره، يجلس وحيدا على سريره الخشبي القديم، عيونه تغوص في الفراغ وكأنها تبحث عن مخرج من دوامة الحياة التي تحيط به.
الجدران مغطاة ببقايا ورق قديم، ونافذته الصغيرة تطل على أزقة ضيقة حيث لا تصعد سوى أصوات الشوارع الصاخبة.

سعيد كان معروفا بين زملائه بأنه ذكي وحالم، لكنه محاصر بين نظام تعليمي غامض، معقد، لا يفهمه ولا يفهمه من حوله.
أسئلة الامتحانات تبدو له أشبه بألغاز لا حل لها، والقوانين البيروقراطية تحكم مصيره بلا رحمة.

في الأسابيع الأخيرة، تراكمت الضغوط عليه.

رفضت إدارته الطلبات المتكررة لفهم طريقة التقييم، وبدلا من المساعدة، وجه بالتهديدات والتوبيخ.

في المدرسة، كان سعيد يعاني من نقص الكتب والموارد، لكنه كان يحاول جاهدا أن يكون الأفضل.

ذات مساء، وبينما كان يحاول مراجعة دروسه، تلقى مكالمة هاتفية من إدارة المدرسة.

طلبوا منه الحضور صباح اليوم التالي لمناقشة وضعه الدراسي.

في صباح اليوم التالي، جلس سعيد أمام لجنة غامضة، دون أن يعرف حقا ما الذي ينتظره.

قرروا حرمانه من اجتياز امتحانات نهاية السنة بسبب "أسباب إدارية" غير واضحة.

خرج سعيد من اللجنة بصدمة وحيرة، لم يجد من يفسر له سبب هذا القرار الذي بدد أحلامه.

عاد إلى منزله، وعيناه تملأهما الدموع، شعر بأن كل الجهود ذهبت سدى.

في غرفته، جلس يفكر بعمق، كان يسمع أصوات أصدقائه يحثونه على الصبر، لكن داخله كان شيء آخر.

ترك الكتاب على الطاولة، وفتح نافذته، تنفس ببطء الهواء البارد، ثم أخرج من جيبه حقيبة صغيرة تحتوي على أدوية وصفها له الطبيب قبل فترة بسبب اكتئابه.

جلس للحظة، ثم قرر أن يضع حدا لمعاناته.

في اللحظة التي وقع فيها هذا القرار، لم يكن سعيد وحده، بل كان صوت آلاف الطلاب المحاصرين في نظام لا يفهمهم ولا يرحمهم.

في صباح اليوم التالي، اكتشف والده ما حدث، وسارع إلى المدرسة، صرخ في وجه الإدارة، لكنه وجد الجدران صماء.

تجمع الطلاب والمعلمون في حزن عميق، وعمت حالة من الصمت المريب.

في جنازة سعيد، وقف عبد الله المعلم، وهو يحمل بين يديه صورة الطالب، وعيناه تذرفان دموعا لم يسبق له أن أظهرها.

قال بصوت مرتجف:

"هذا النظام الذي لم يحمي أحلامه، هو من قتل بطلنا".

وتحدثت سميرة، الطالبة الصغيرة، بصوت مكسور:

"لماذا نحتاج إلى معاناة بهذا الشكل؟ لماذا لا نفهم؟"

كانت كلماتها صدى للألم الذي يعتصر قلوب الجميع.

عاد عبد الله إلى فصله، ووقف أمام الطلاب، وقال:

"سعيد لم يكن فقط اسما، بل كان صوت كل من لا يسمع، وكل من يشعر بالظلم".

كتب في دفتره بعد الحصة:

"حين يموت الحلم، تموت روح الوطن،
ونحن بحاجة لإعادة الحياة إليه".

في قاعة صغيرة داخل المدرسة، اجتمع عدد من المعلمين، بينهم عبد الله وسعيد، زميله الذي كان يشارك همومه منذ زمن، وأيضا بعض المعلمين الجدد الذين جاءوا من قرى ومدن أخرى.

كان الجو مشحونا بمزيج من الحزن والغضب والقلق بعد الحادثة التي هزت الجميع.

فتح عبد الله النقاش بصوت هادئ لكنه حازم:

"ما حدث لسعيد ليس مجرد مأساة فردية، بل فشل عميق للنظام الذي نعمل فيه.
المدرسة التي نعرفها، هل هي حقا تؤدي دورها؟"

نظر سعيد إلى عبد الله، وأومأ برأسه:

"نحن هنا لنعلم، لنفتح أبواب المستقبل، لكن هل هذا يكفي؟
هل المدرسة قادرة على بناء الإنسان الذي يحتاجه مجتمعنا؟"

أضافت "فاطمة"، معلمة مادة اللغة العربية، وهي تعبر عن غضبها:

"نحن نعامل كآلات تصحيح، نصحح أوراق الامتحانات، نملأ تقارير، لكننا لا نصل إلى قلوب الطلاب،
النظام يعاملنا نحن والطلاب كأرقام في سجلات لا أكثر".

تدخل "مروان"، المعلم الجديد، وقال بحذر:

"التعليم ليس فقط نقل معرفة، بل هو بناء شخصية، وتربية على التفكير النقدي،
لكن ما نراه من نقص في الموارد وضعف الدعم يجعل من هذا الهدف بعيد المنال".

نظر عبد الله إلى الجميع، وقال:

"المشكلة أننا نجبر على التعامل مع واقع مرير،
من دون تغيير حقيقي في المناهج، أو توفير بيئة تعليمية صحيحة".

ابتسمت "فاطمة" بحزن وقالت:

"المدرسة، التي يفترض أن تكون منارة المعرفة، أصبحت سجنا يكبل الإبداع ويكتم الحلم".

سكت الجميع لحظة، ثم قال سعيد بعمق:

"ربما وظيفة المدرسة ليست فقط التعليم،
بل أن تكون ملجأ للأطفال الذين لا يجدون في بيوتهم الأمان، صوت لمن فقدوا الأمل،
مكان يعيد لهم الإيمان بأن الحياة تستحق".

تنهد عبد الله وقال:

"لكن هذا يتطلب منا نحن المعلمين أن نكون أكثر من مجرد ناقلين للمعلومات، أن نكون قدوة، أن نصنع فرقا في حياة هؤلاء الأطفال".

سمع صوت خطوات في الباب، ودخل مدير المدرسة، الذي كان قد حضر ليستمع.

قال المدير:

"أنا معكم في هذه الأفكار، لكن التحديات أكبر من قدرتنا أحيانا.
هناك ضغوطات من الوزارة، نقص في الميزانيات، وعدم استقرار في السياسات".

رد عبد الله بحزم:

"هذا لا يعفي أحدا من المسؤولية.
يجب أن نطالب بالتغيير، وأن لا نسمح لأحد أن يقتل أحلام أطفالنا".

أنهى عبد الله الحديث قائلا:

"وظيفة المدرسة هي أن تكون منارة،
منارة تضيء الطريق رغم العتمة،
وأن نؤمن بأن التغيير يبدأ من هنا".

وقف الجميع، وأشعل هذا الحوار شعلة من الأمل وسط الألم.

كتب عبد الله في دفتره بعد الاجتماع:

"المدرسة ليست مجرد جدران،
بل حياة، أمل، ومسؤولية تحملها كل من يؤمن بغد أفضل".

في قاعة الاجتماعات الصغيرة التابعة للمديرية الإقليمية للتربية، كان "ياسين" واقفا أمام طاولة طويلة، تحيط بها وجوه مألوفة من موظفين ومديرين.
أعد عرضه بدقة، يحمل بين طياته أفكارا متجددة عن تطوير التعليم في المناطق النائية، مستندا إلى تجاربه الميدانية وملفات الفساد التي كشف عنها.

بدا حماسه واضحا في حديثه، لكنه لاحظ سريعا تغير الأجواء في القاعة، نظرات متبادلة بين المسؤولين، همسات تكاد تسمعها.

بعد دقائق قليلة من بداية العرض، قاطعه مدير المديرية، "الأستاذ فؤاد"، بصوت هادئ لكنه صارم:

"ياسين، أعتقد أن هذه الأفكار تحتاج إلى مراجعة أعمق، وربما ليست الوقت المناسب لعرضها الآن".

تراجع ياسين قليلا، وقال بحزم:

"هذه القضايا تمس مستقبل آلاف الطلاب والمعلمين، ولا يمكننا تجاهلها".

ابتسم فؤاد بسخرية خفيفة:

"الموضوع ليس تجاهل، بل تنظيم وترتيب الأولويات.
هناك أمور أخرى يجب أن نركز عليها الآن".

سحب ياسين أوراقه بهدوء، لكنه شعر بثقل قرار الإيقاف.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يواجه فيها مثل هذا الموقف، لكنه كان يأمل أن تكون نهايته مختلفة.

خرج من القاعة، ووجد زملاءه ينتظرونه، تعابيرهم تحمل مزيجا من الأسى والإحباط.

قال له "سعيد"، أحد المعلمين:

"لا تهتم، هذا النظام لا يحب التغيير، لكنه سيخسر أكثر إذا استمر في صمته".

تلفت ياسين حوله، وقال بصوت منخفض:

"لا يمكن أن أصمت. سأجد طريقا آخر".

في الخارج، وقف لحظة يتنفس عميقا، وألقى نظرة على السماء الرمادية، حيث كانت الغيوم تتراكم، تشبه الضباب الذي يخيم على المستقبل.

كتب في دفتره:

"حين يمنع الصوت عن التعبير،
يبدأ البحث عن طرق جديدة للحديث،
لا أستطيع التراجع، فالأمل ينتظر من يقاتل من أجله".

كانت تلك اللحظة بداية فصل جديد في معركته، مواجهة أعمق مع منظومة تحاول إسكاته، لكنه كان مستعدا للتحدي.

مستشفى الدولة الميتة

في قاعة انتظار صغيرة بمستشفى عام في قرية نائية، كانت "جميلة"، امرأة في أواخر الخمسينات، تجلس على كرسي بلاستيكي مهترئ.

الضوء خافت، والرائحة تعبر عن انعدام النظافة، بينما تملأ أصوات الهمسات والأنين المكان.

جميلة كانت تعاني من مرض مزمن، وحالتها تزداد سوءا مع مرور الوقت، لكنها لم تجد سوى هذا المستشفى الذي يفتقر إلى أبسط مقومات الرعاية الصحية.

أمضت ساعات طويلة تنتظر دورها، بينما كانت تصدر أحيانا أنفاسا متقطعة وصوتا يشبه الأنين.

حاولت التحدث إلى الممرضة في الدور، لكن الازدحام وكثرة المرضى جعلتها تترك وحيدة في زحمة الانتظار.

على المقاعد المجاورة، جلس بعض المرضى وأفراد عائلاتهم، يراقبون بحذر علامات الألم التي تظهر على وجه جميلة.

فجأة، توقفت أنفاس جميلة، وبدأ جسدها يرتخي.

صرخت إحدى النساء:

"المرأة تسقط! هل من أحد يستطيع المساعدة؟"

الممرضات ترددن في التحرك، لكن الازدحام والبيروقراطية جعلا رد الفعل بطيئا.

اقترب طبيب المناوبة متثاقلا، وبدأ يفحص جميلة، لكنه بدا محبطا من ضعف الإمكانيات، ونقص الأجهزة الطبية.

حاول الطبيب بكل جهده إنعاشها، لكن الوقت كان قد فات.

اجتمع أفراد الأسرة حول جميلة، ودموع الحزن تتساقط كأنهار، والوجوه تحمل ملامح الغضب والخيبة.

في زاوية من القاعة، وقف ياسين، الذي كان قد حضر لتوثيق حالة الرعاية الصحية في المنطقة،

وهو يشعر بثقل المسؤولية وكأن هذه اللحظة ترمز إلى فشل شامل.

كتب في دفتره:

"حين تموت الحياة في قاعات الانتظار،
تموت معها أحلام آلاف ينتظرون الأمل".

ابتسم بمرارة، وتساءل بصوت منخفض:

"هل من يملك الحل؟ أم أن الجميع متواطئون في تكرار هذه المآسي؟"

تلك اللحظة لم تكن مجرد وفاة، بل صرخة مكتومة على إهمال النظام الذي يتجاهل حياة الناس

في غرفة صغيرة ضيقة داخل المستشفى، جلس الدكتور "أيوب" على كرسيه المهترئ، وجهه متجعد من التعب والقلق.

كان الطبيب الشاب يحمل في عينيه مزيجا من الحيرة والضغط الذي لا يستطيع الإفصاح عنه.

قبل أيام قليلة، تلقى رسالة غامضة عبر هاتفه المحمول، تطلب منه مبلغا كبيرا من المال مقابل عدم نشر معلومات عن "أخطاء" مزعومة في علاجاته.

كانت الرسالة تحمل تهديدات ضمنية، وأسلوبها يوحي بأن وراءها جهات متنفذة داخل المستشفى.

حاول الدكتور أيوب تجاهل الرسائل، لكنه سرعان ما أدرك أن الوضع أصبح خطيرا.

في صباح اليوم التالي، حضر إلى المستشفى ليجد أن أحد المرضى اشتكى بشكل رسمي على ما وصفه بإهمال طبي، وبدأت الإدارة تضغط عليه لتحقيقات مفاجئة.

جلس مع مدير المستشفى، الذي كان له موقف بارد، وقال له:

"نحن نعلم كل شيء يا دكتور، لكن الأفضل لك أن تتعاون معنا".

شعر أيوب بأن اللعبة أكبر منه، وأنه عالق بين متطلبات النظام وضغوطات الابتزاز.

في استراحة قصيرة، التقى بزميله "سعيد"، الذي لاحظ توتره، وسأله:

"ما الأمر؟ تبدو وكأنك تحمل العالم على كتفيك".

أجاب أيوب بصوت منخفض:

"تتبعني تهديدات، وبدأوا يضغطون على مسؤوليتي، يطالبونني بالمال مقابل السكوت،
ولا أعرف إلى متى سأصمد".

سعيد تنهد وقال:

"هذه هي الحقيقة التي لا يريدونك أن تراها،
المرضى يعانون، والطبيب يصبح ضحية نظام لا يرحم".

حاول أيوب أن يستجمع قواه، وقال:

"لكني أحب مهنتي، وأريد أن أساعد، لكن هل يمكنني فعل ذلك تحت ظل هذه الابتزازات؟"

وقف سعيد ووضع يده على كتف صديقه:

"الابتزاز ليس نهاية الطريق، هناك من يقاتل من أجلك ومن أجل مهنة الطب،
لا تستسلم".

في تلك اللحظة، دخل المدير مرة أخرى، وأشار إلى الساعة، قائلا:

"الوقت ينفد، يا دكتور".

خرج أيوب من الغرفة، وهو يشعر بثقل مسؤولية لم تكن فقط مهنية، بل وجودية.

كتب في دفتره بعد نهاية اليوم:

"حين يتحول الطبيب إلى ضحية، تصبح الحياة مرهونة بالصمت،
ولكن لا مكان للصمت في وجه الظلم".

في مخزن صغير مظلم بالمستشفى، كان "كمال"، الموظف المسؤول عن المخزن، يفتح باب الخزانة بحذر.

كانت الرفوف القديمة مكدسة بعبوات الأدوية، لكن كمية الدواء التي يجب أن تكون موجودة كانت أقل بكثير من الكمية المسجلة في الجداول الرسمية.

كمال ينظر حوله بتوتر، يلتقط بعض العبوات ويضعها في حقيبة صغيرة، يتحرك بسرعة خوفا من أن يكشف أمره.

في نفس الوقت، كانت "ليلى"، الممرضة المسؤولة عن صيدلية المستشفى، تلاحظ نقص الأدوية وتشتكي بصوت خافت:

"المرضى يعانون ونفد المخزون، كيف سنعالجهم بدون أدوية؟"

توجهت ليلى إلى مكتب المدير لطلب توضيحات، لكن المدير كان يغلق باب مكتبه في وجهها.

خرجت ليلى غاضبة، وهي تعرف أن هناك من يستغل الظروف لصالحه.

في اليوم التالي، اكتشف الطبيب "أيوب" أن أدوية مهمة مخصصة لحالات الطوارئ قد اختفت، مما زاد من تعقيد وضع المرضى.

قرر أيوب البحث عن الحقيقة، فتوجه إلى المخزن متخفيا، والتقى هناك بكمال في موقف محرج.

قال أيوب بغضب:

"كمال، ماذا تفعل هنا؟ هل أنت من يسرق الأدوية؟"

تلعثم كمال وقال:

"أنا... أنا مضطر، الضغوط كثيرة، والرواتب متأخرة".

أجاب أيوب بحزم:

"لكن هذه أدوية الناس، حياتهم، سرقة كهذه تعني قتلهم ببطء".

بدأ الاثنان في نقاش محتدم، وكمال يعترف بمساعدته من قبل مسؤولين كبار داخل المستشفى، الذين يستغلون ضعف النظام.

خرج أيوب من المخزن، وقرر أن يوثق ما رأى، رغم المخاطر التي قد تواجهه.

في مكتب المدير، طلب موعدا جديدا، وحاول إبلاغه بالسرقة، لكن المدير تجاهل الأمر ببرود.

غادر أيوب مكتبه وهو يشعر بثقل العبء المتزايد.

كتب في دفتره:

"حين يصبح الدواء سلعة مسروقة،
يزداد الألم، وتزداد المعاناة،
وأرواح المرضى تتلاشى في صمت".

في إحدى القرى النائية، عند منزل صغير مبني من الطين، كان "رشيد" يصرخ بحزن وذعر، وهو يحاول إنقاذ ابنه الصغير "حمزة" الذي كان يئن من ألم حاد في صدره.

البيت ضيق، الهواء ثقيل، والجدران تتناثر عليها آثار الفقر والحرمان.

حمل رشيد ابنه على ذراعيه، وركض نحو الطريق الرئيسي، حيث كان ينتظر سيارة الإسعاف، لكنه تفاجأ بطلب السائق مبلغا كبيرا مقابل النقل.

قال السائق ببرود:

"ما عنديش إذن أو ميزانية لنقلك مجانا، يلزمك دفع المبلغ أولا".

توسل رشيد بدموع:

"ابني يتألم، لا وقت للانتظار، أرجوك، ساعدني".

لكن السائق رفض بحزم، وأغلق باب السيارة.

وقف رشيد عاجزا، عينه تتلفت حوله تبحث عن مساعدة، لكنه وجد الطريق خالية من الناس.

حاول الاتصال بالمستشفى لكنه لم يجد أي سيارة إسعاف مجانية أو دعم، حيث باتت الموارد شحيحة جدا.

مرت الدقائق، وصرخ حمزة بدأ يضعف، وأصبح جسده باردا.

في قاعة الانتظار بالمستشفى، كانت الممرضة "ليلى" تتلقى تقارير حالات الطوارئ، لكنها لم تستطع فعل الكثير.

وصل رشيد أخيرا إلى باب المستشفى، حاملا ابنه في ذراعيه، لكن لم يكن هناك أحد يستطيع إنقاذ الطفل.

سقط حمزة بين يدي والده، وبصوت مبحوح، قال:

"آسف يا بني، لم أستطع أن أنقذك".

عم الصمت الحزين في المكان، ووقع الحزن على وجوه الحاضرين.

تحدث رشيد بمرارة:

"لم تكن فقط سيارة الإسعاف،
بل نظام يشترى فيه الألم بالمال، والرحمة مفقودة".

كتب ياسين، الذي كان يتابع الحالة ويدون، في دفتره:

"حين يقتل الطفل بسبب الفقر،
يموت الحلم في قلوب الأمهات،
ويتحول الألم إلى ثورة صامتة".

وقف الجميع، وعادوا إلى صمتهم، تاركين أثر مأساة جديدة تثقل كاهل القرية، وتؤكد فشل النظام الصحي في حماية الضعفاء.

في مكتب صغير مضاء بضوء خافت، جلس ياسين، عيناه تتابعان دفاتر الملاحظات والصور التي جمعها من المستشفى، قلقه واضح على ملامحه، ويده تمسك بقلم يكتب به ملاحظاته النهائية.

كل ورقة تمثل شهادات، وقائع، أدلة على سلسلة من الإهمال والفساد التي تقتل الأبرياء بصمت.

تذكر وجوه المرضى، دموع جميلة التي ماتت في قاعة الانتظار، نظرات الطفل حمزة التي فقد حياته بسبب قسوة النظام، والابتزاز الذي تعرض له الطبيب أيوب، وسرقة الأدوية التي تزداد يوما بعد يوم.

أغمض عينيه لحظة، مستجمعا شجاعته، ثم رفع رأسه وقال بصوت مكتوم:

"لا يمكنني السكوت بعد الآن.
يجب أن يعرف الجميع الحقيقة، حتى وإن كان الثمن غاليا".

اتصل بأحد الصحفيين المستقلين الذي عرفه منذ فترة، وحجز معه لقاء لتسليم الوثائق والملفات.

في عقله كان يعلم أن هذه الخطوة ستفتح له أبوابا من العداء، وربما خطرا على حياته، لكنه كان مستعدا للمواجهة.

كتب في رسالة إلكترونية:

"هذا ما لم يقال، وهذا ما دفع الكثيرين إلى الصمت،
لكن الحق لا يموت، وأنا سأقف إلى جانب الحقيقة مهما كانت التضحيات".

في الوقت نفسه، تذكر نصيحة صديقه سعيد:

"الصمت ليس خيارا، والكلمة القوية تغير الواقع".

جلس يتنفس بعمق، وأخرج كاميرته، وجمع بعض التسجيلات والصور التي التقطها، وبدأ يحضر تقريرا شاملا.

مرت الساعات، وكلما كتب جملة، زاد إيمانه بأن هذه الرواية ليست مجرد قصته، بل قصة وطن بأكمله.

كتب في دفتره الختامي:

"حين تغلق الأبواب في وجه العدالة،
يبقى الصوت الحر هو آخر ملاذ،
وأنا سأكون هذا الصوت".

وقف ياسين، وفتح النافذة، تنفس هواء الليل البارد، وشعر بأن الفجر قريب، رغم الظلام الحالك.

كانت هذه بداية معركة جديدة، معركة الحقيقة ضد الصمت.

المحكمة التي لا تحكم

في قاعة المحكمة المزدحمة، جلس "يوسف" مقيد الأيدي، يرتدي زي السجن الرمادي، لكن عينيه كانت تحترقان بنار لا تخمد.

كان الناشط الحقوقي معروفا بشجاعته في فضح الفساد، وصوته الحاد ضد الظلم السياسي والاجتماعي.

الجمهور محاصر بين خوف وترقب، بينما القضاة يجلسون على المنصة، يتلقون ملفات الاتهام أمامهم.

بدأ المدعي العام بقراءة التهم:

"تهمة نشر أخبار كاذبة، إثارة الفتنة، والتحريض على التظاهر غير القانوني".

يوسف استمع بهدوء، وأجاب بصوت واثق:

"أنا لم أخترع شيئا، بل قلت الحقيقة التي يخاف الجميع من سماعها".

بدأت الجلسة تتصاعد، وكان دفاع يوسف يحاول إثبات أن ما قام به يدخل ضمن حق التعبير وحرية الرأي.

لكن القاضي قاطع:

"الحرية لها حدود، والقانون فوق الجميع".

تدخل محامي الدفاع وقال:

"إن قمع الأصوات الحرة يؤدي إلى تفاقم الأوضاع، والظلم لا يعالج بالقمع".

في الكواليس، كان ياسين يراقب بقلق، يعلم أن محاكمة يوسف تمثل اختبارا حقيقيا لمستقبل حرية التعبير في البلد.

وقف يوسف، وقال بجرأة:

"لن تكسروني بالكلمات أو بالسلاسل،
صوتي هو صوت ملايين من الشعب الذي يسعى للحرية والعدالة".

خرجت الجلسة بتوتر، والجمهور تفرق متألما، يحمل في عيونه أملا حزينا.

كتب ياسين في دفتره:

"في محكمة صامتة،
يصارع صوت الحق بين جدران الصمت،
لكنها معركة لا تنتهي إلا بانتصار الحرية".

كانت القاعة مكتظة بالحضور، والجو متوترا فوق المعتاد، خصوصا مع تصاعد التوترات أثناء محاكمة يوسف.

المحامي "سمير"، الذي كان يدافع عن يوسف بحماس، جلس عند الطاولة مع الأوراق بين يديه، يجهز مداخلته القادمة.

حين حاول سمير أن يكشف أمام القاضي والثلاثة أعضاء الجلسة عن ثغرات في الأدلة، اعترضه ضابط الأمن المكلف بالحراسة، الذي بدا عليه الغضب.

صوت الضابط كان جهوريا:

"توقف عن الكلام فورا"!

لم ينصت سمير، واستمر في دفاعه، مما أثار غضب الضابط بشكل أكبر.

اقترب منه الضابط، ووجه له لكمة على وجهه، مما أحدث صدمة لدى الجميع في القاعة.

صاح أحد الحضور:

"هل هذا مقبول داخل المحكمة؟"

لكن الحراس الموالين للنظام تدخلوا بسرعة وفرضوا الصمت على الجميع، وأخرجوا سمير خارج القاعة بالقوة.

يوسف نظر من خلف القضبان، وعيناه مليئتان بالغضب والألم، لكنه لم يستطع فعل شيء.

في الخارج، كان سمير يتلقى الإسعافات الأولية، وجسمه يرتجف من الألم، لكن روحه لم تتكسر.

قال بصوت متهدج لكنه حازم:

"هذا ليس مجرد اعتداء على شخصي،
بل محاولة لإسكات الحقيقة".

في رده على الحادثة، بدأ بعض المحامين الآخرين ينظمون تحركات احتجاجية ضد ما حدث، لكن الخوف من السلطة كان يحبس الأنفاس.

داخل القاعة، استمرت الجلسة على رغم الصدمة، لكن الغيوم كانت تزداد قتامة على مصير المحاكمة.

كتب ياسين في دفتر ملاحظاته:

"حين يتحول قمع الكلام إلى ضرب جسدي،
تصبح المحكمة مسرحا للظلم،
وصوت العدالة يختنق بين جدران الصمت".

بعد الحادثة العنيفة التي تعرض لها المحامي سمير، تصاعدت التوترات داخل المحكمة وخارجها، خاصة مع تزايد الدعم الشعبي للناشط يوسف.

في غرفة القضاة الخاصة، جلس القاضي "محمد" وحده، عابثا بأوراق القضية، يعاني من صراع داخلي بين ضميره المهني والضغوط السياسية التي تحاصره.

كان محمد من القضاة القلائل الذين رفضوا الانصياع للضغوط، ورفض إصدار أحكام جائرة دون تحقيق العدالة الحقيقية.

في صباح يوم مشؤوم، دخل إليه ممثل عن وزارة العدل، يحمل خطابا رسميا:

"السيد القاضي، قررت الوزارة نقلك إلى محكمة أخرى اعتبارا من الغد، بناء على طلب إداري".

نظر محمد في الخطاب، وعيناه تعكسان دهشة وخيبة أمل عميقة.

قال بصوت متحسر:

"هل هذا بسبب موقفي في قضية يوسف؟"

أجاب الممثل:

"لا أعلم التفاصيل، لكن القرار نهائي، ويجب عليك الامتثال".

خرج الممثل، تاركا محمد في غرفة الوحدة، يفكر في مصير العدالة.

لم يكن هذا النقل مجرد تغيير وظيفي، بل محاولة واضحة لكتم صوت نزيه يمكن أن يعرقل آلة القمع.

في القاعة، بدأ الشائعات تنتشر بسرعة، وبدأ المحامون والحقوقيون يطالبون بالتحقيق في القرار، معتبرين إياه إقصاء قسريا.

التقى محمد مع ياسين خارج المحكمة، حيث قال له بحزن:

"القضاء الذي يحاول أن يحافظ على النزاهة يعاقب،
لكن هذا لن يوقف العدالة، لن يجعل الحقيقة تختفي".

رد ياسين:

"سنكتب، سنوثق، وسنظل نحارب حتى النهاية".

كتب محمد في دفتره بعد مغادرته القاعة:

"حين ينقل الحارس الأمين،
تسود الظلمات لفترة،
لكن النور لن يخبو أبدا".

في زقاق ضيق وسط العاصمة، كانت "ليلى"، فتاة عشرينية، ترتجف وهي تقف أمام مبنى المحكمة، حيث كانت تنظر إلى الداخل بعيون تحمل مزيجا من الخوف والإصرار.

ليلى كانت ناشطة شابة، استخدمت صوتها للتعبير عن آمالها، ورفضت الصمت أمام الظلم، لكنها الآن تواجه اتهامات خطيرة بسبب منشوراتها على وسائل التواصل الاجتماعي.

داخل قاعة المحكمة، جلست ليلى بمواجهة القاضي الجديد، الذي لم يكن معروفا بنزاهته، بينما كانت عيون الجميع تراقب بفارغ الصبر.

بدأت جلسة الاستماع، حيث قرأت النيابة العامة التهم:

"نشر أخبار كاذبة، التحريض على الكراهية، وتقويض النظام".

رفعت ليلى رأسها وقالت بصوت ثابت:

"كل ما قلته هو الحقيقة التي يعيشها شعبي،
لست مذنبة لأنني اخترت أن أقولها".

لكن القاضي رد بحزم:

"القانون واضح، والحديث خارج الإطار الرسمي يعاقب عليه".

خلال الجلسة، تعالت أصوات الدفاع عن حق التعبير، لكن النظام أظهر قسوته في محاولة إسكاتها.

في الخارج، تجمع عدد من الناشطين للتضامن مع ليلى، ورفعوا لافتات تطالب بالحرية والعدالة.

كان ياسين موجودا أيضا، يدون كل لحظة، ويشعر بثقل المعركة التي يخوضها هؤلاء الشباب.

جلس ليلى في الزاوية، وكتبت في دفترها:

"صوتي قد يسجن، لكن فكري لا يقيد،
هذا النضال ليس فقط لي، بل لكل من يريد الحرية".

خرجت الجلسة بنبرة قاتمة، لكن الأمل لم يمت في قلوب من آمنوا بقضيتها.

كانت أضواء المدينة تخفت مع اقتراب الليل، لكن في الشوارع الضيقة، كان التوتر مشتعلاً في الأجواء.

ياسين، الذي أمضى شهورا في توثيق الفساد والظلم، وجد نفسه محاطا بمجموعة من رجال الأمن يرتدون الزي الرسمي، يقفون على جانبي الطريق.

اقتربوا منه بسرعة، وأمروه بالتوقف، قبل أن يسحب بالقوة وسط زحام المارة الذين توقفوا يتساءلون في صمت.

قال له أحد الضباط بنبرة صارمة:

"أنت متهم بإهانة المؤسسات والجهات الرسمية، سترافقنا للتحقيق".

لم يدر ياسين كلاما، لكن في داخله ثارت مشاعر الغضب والخوف والحزن.

أُدخل إلى سيارة الشرطة، بينما كانت عيناه تراقب العالم من حوله، مدركا أن هذه اللحظة ليست سوى بداية رحلة صعبة.

في مركز التحقيق، جلس في غرفة صغيرة، مضاء بضوء خافت، ووجوه المحققين تحمل علامات الصرامة.

سألوه عن المواد التي نشرها، عن الشهادات التي جمعها، وعن تحركاته الأخيرة.

أجاب ياسين بكل هدوء:

"كل ما فعلته كان من أجل الحقيقة،
من أجل شعب يحق له أن يعرف".

رفض المحققون الاستماع، واعتبروا موقفه تحديا للنظام.

في تلك اللحظة، تذكر ياسين كلمات صديقه سعيد:

"المعركة لن تكون سهلة، لكنها تستحق كل تضحياتنا".

كتب في دفتره، رغم الظروف الصعبة:

"حين يعتقل صوت الحق،
تصبح الكلمة أقوى في السجن،
والحرية تولد من رحم القيد".

خرج المشهد بضوء خافت يعكس ظلال الاعتقال، لكنه يحمل في طياته إصرارا لا يلين.

انقراض المعنى

لم يكن في الزنزانة شيء يذكر.

جداران رماديان، سرير معدني، بطانية تنبعث منها رائحة رطوبة قديمة، ونافذة صغيرة في الأعلى، بالكاد تسرب الضوء.

جلس ياسين على الأرض، ظهره إلى الحائط، وذقنه مستند إلى ركبتيه، كأنه يحاول أن ينسحب إلى الداخل.

الضوء الخافت القادم من ثقب في الباب رسم ظله مشوها على البلاط البارد، كأن حتى جسده لم يعد متماسكا.

مرت ساعات، ربما أيام، لا يدري. الزمن داخل الزنزانة ليس له معنى.
أحيانا يسمع صراخا من الزنازين المجاورة، أحيانا صوت خطوات، لكن الصمت هو الضجيج الأكبر.

كان يحاول أن يعيد ترتيب كل شيء، منذ البداية. لماذا بدأ؟ من كان؟ ماذا كان يظن؟ تساؤلات تنهش عقله:

هل يستحق الأمر كل هذا الألم؟
هل كان غبيا حين ظن أن الكلمات تستطيع زلزلة نظام؟
هل العالم فعلا يتغير، أم نحن فقط نتآكل ونحن نحاول؟
هل كنا نحلم أكثر مما نحتمل؟

بدأ يتحدث مع نفسه بصوت خافت، كأن يخاطب شبحه:

"كتبت كثيرا، تكلمت كثيرا، نزلت للشارع، سجلت، وثقت، تحديت، صدّقت أن الحقيقة أقوى من القمع... لكن أين أنا الآن؟
أنا مجرد جسد في حفرة، مجرد اسم في ملف، مجرد سطر في محضر".

نظر إلى الجدار. تخيل أنه يخاطبه. تخيل أن كل الذين مروا من هنا تركوا آثارهم عليه.

هل بكى أحدهم هنا؟ هل انتحر أحدهم هنا؟ هل ضحك أحدهم رغم كل شيء؟

بكى ياسين فجأة، بصمت. بكاء غير حاد، لكنه كثيف.

بكاء لم يكن بسبب الألم، بل بسبب اللاجدوى.

شعر أن كل ما فعله لم يمنع موت مريضة في قاعة الانتظار، ولا أنقذ طالبا من الانتحار، ولا أعاد للقاضي نزاهته، ولا حمى فتاة من الإدانة.

كل شيء مستمر. كل شيء أقوى منه.

كأن النظام آلة عملاقة، تلتهم كل شيء.

وهو مجرد خيط صغير حاول أن يمزقها.

قال في نفسه:

"ربما كنا أغبياء حين صدقنا أن النشر يغير، أن الشهادة تقاوم، أن الصراخ يسمع".

نظر إلى السقف، وأغمض عينيه.

في تلك اللحظة، لم يكن يريد شيئا.

لا حرية، لا عدالة، لا وطن.

كان يريد فقط أن يتوقف كل شيء. أن يصمت العالم. أن يفرغ رأسه من الضجيج. أن يختفي.

في عمق هذا السكون، مرت في ذهنه صور:

أمه وهي تبكي يوم اعتقاله.

رفيقه سعيد وهو ينقل على نقالة بعد التعذيب.

الطفل الذي مات لأن والده لا يملك ثمن سيارة إسعاف.

كلهم أمامه الآن. لا صوت، فقط صور.

همس:

"هل تخلينا عنهم، أم تخلى العالم عنهم جميعا؟"

ثم صمت.

جلس.

ولم يفكر في شيء.

لم يكن يتوقع أن يجد نفسه هنا.

غرفة بيضاء باردة، فيها طاولة صغيرة، كرسيان، وكأس ماء موضوع بعناية أمامه.

جلس أمام امرأة خمسينية، نظراتها هادئة، صامتة، وموجهة نحوه، كأنها تنتظر شيئا لا يريد قوله.

قالت بلطف:

"أنت الآن في جلسة دعم نفسي. ليس تحقيقا. ولا محضرا".

لم يرد. فقط أومأ برأسه.

كان لا يزال يشعر أن كل شيء منظم لإرباكه. حتى هذه الجلسة.

أخرجت دفترا صغيرا. لم تفتحه.

"هل تنام؟"

"أحيانا".

"هل تحلم؟"

"لا أحلم. ولا أستيقظ حتى".

سجلت الجملة في ذهنها، دون أن تكتب. نظرت إليه:

"سمعت أنك توقفت عن الكلام لأيام بعد دخولك الزنزانة".

"الكلام مثل الماء. لا تسقي أرضا ميتة".

مرت لحظة صمت. ثم قالت:

"تكتب، أليس كذلك؟ كنت صحفيا؟"

ابتسم بسخرية:

"كنت. والآن مجرد رقم سجين".

تنهدت، وأجابت بنبرة حاسمة:

"ما زلت شخصا. وهذا فارق مهم. أن تكون رقما، هذه لغة السلطة. لكن أنت هنا الآن، تتحدث. وهذا يعني أن هناك شيء فيك ما زال حيا".

رفع عينيه نحوها لأول مرة. كان في عينيه تعب قديم.

قال بنبرة بطيئة:

"كل الذين آمنا بهم تعبوا، أو صمتوا، أو سافروا. بعضهم خان، بعضهم اختفى. ونحن بقينا عالقين بين جدار وسقف. نكتب ضد الجدار، ونضرب رأسنا في السقف".

قالت:

"هل هذا ما يؤلمك؟ أن ما آمنت به لم ينجح؟"

هز رأسه:

"يؤلمني أن لا أحد اهتز. أن الحياة استمرت كأننا لم نقل شيئا. أن الظلم صار معتادا. أني كلما تحدثت، شعرت أني أكلم نفسي".

سكتت قليلا. ثم سألت:

"هل تؤمن بالحياة بعد هذا؟"

ابتسم بمرارة:

"الحياة؟ أي حياة؟ السجن ممتد. فقط يتغير الديكور. السجون في الداخل، في الشارع، في القانون، في العائلة. لم أخرج من سجن إلا لأدخل آخر".

وضعت دفترها على الطاولة، وقالت:

"لهذا أنت هنا. لنعيد ترتيب الركام. لا أوعدك بالضوء، لكن ربما نستطيع أن نحفر نافذة".

نظر إليها بصمت. لم يبتسم، لكنه لم يعترض.

لأول مرة منذ دخوله الزنزانة، لم يشعر بالرغبة في الاختفاء.

في الليل، بعد الجلسة، عاد إلى زنزانته الصغيرة.

باب حديدي، فراش رطب، جدران مشققة كأنها تئن منذ قرون، ورائحة بلل لا تفارقه.

جلس على الأرض، ضاما ركبتيه، يسند ظهره للجدار.

لم ينم. لم يتكلم. فقط استمع لصوت الماء يتسرب من أنبوب مكسور في الزاوية.

طقطقة ثابتة، مثل ساعة تمشي عكس الزمن.

مرت في ذهنه كلمات المعالجة النفسية.

"ربما نحفر نافذة."

لكنه لم يستطع تخيل أي نافذة.

كل ما يراه: جدار.

كل ما يسمعه: صمت.

مرت ساعات.

فجأة، سمع صوت حارس يصرخ في الممر:

"صافي سدو عليهم. ما بقا عندنا وقت نهضر مع مجانين".

ضحك آخر بصوت خافت:

"هذاك رقم 339؟ راه كيكتب الشعر مع راسو".

لم يهتم.

لكنه شعر بشيء يشبه الوجع، ليس لأنهم سخروا، بل لأنه صدقهم.

"هل فعلا أصبحت مجنونا؟ أم أن الجنون أن تبقى عاقلا في مكان كهذا؟"

وقف. مشى بضع خطوات في الزنزانة الضيقة.

وحده الحائط أمامه كان ثابتا.

كأن الجدار هو الشيء الوحيد الذي لا يخونه.

اقترب. لمسه بأصابعه.

خدش الحائط بأظافره، حتى نزف إصبعه قليلا.

كتب بكفه المرتجف على الجدار:

"هل هذا وطني؟"

ثم جلس. قرأ الجملة أكثر من مرة.

"هل هذا وطني؟"

تكررت في رأسه، لا ككلمات، بل كصرخة داخله.

تذكر أمه.

تذكر كيف كانت تخاف عليه من الشرطة، من المقالات، من الحرف.

تذكر صديقه الذي اختفى فجأة بعد التحقيق معه.

تذكر زميلته التي طُردت لأنها تحدثت عن الفساد في الجامعة.

تذكر القاضي الذي نقل لأنه أنصف مظلوما.

تذكر المحامي الذي ضرب في المحكمة أمام الجميع.

تذكر الفتاة التي بكت في المحكمة لأنها فقط كتبت تغريدة.

ثم عاد إلى الجدار.

كتب مرة أخرى، تحت السؤال:

"وإن لم يكن، فأين وطني إذن؟"

سقط على الأرض. لم يعد يملك لغة، ولا حيلة، ولا جلدا على الصراخ.

لكنه همس لنفسه:

"إذا كان الوطن هو المكان الذي تهان فيه لأنك تحبه...
فهل ما زال الوطن وطنا؟"

أغمض عينيه.

لا ليحلم، بل ليهرب.

وفي الظلام، بقي السؤال يتردد داخله كجرس مهمل في ساحة فارغة.

استفاق هشام في اليوم التالي على صراخ قادم من الزنزانة المجاورة.

"خرجوني من هنااااااا! راكم قتلتوني"!

كان الصوت هشا، متقطعا، حادا كزجاج مكسور يداس عليه.

وقف هشام ببطء. اقترب من القضبان الحديدية، التصق بها، وأنصت.

"أنا ما درت والو! أنا غير كنت كنقلب على الفيزا! آش درت؟"!

"ماشي حرام نحلم نخرج من بلاد خنقتني؟"

"وليت كنحس براسي كنموت بشوية"

ثم صمت.

تلاه صوت بكاء رجل آخر، لا يبدو أنه في العشرينات، بل ربما في الثلاثين أو أكثر.

"أنا كتبت في الفيسبوك غير كلمة: ما بقاش عندنا أمل... قالو عليا كنحرض على الانتحار الجماعي".

هشام عاد إلى ركن زنزانته، وجلس.

همس لنفسه:

"الزنازن ما بقاتش فقط للمجرمين... ولات تجمع اللي ما عرف شنو يدير: ينتحر؟ ولا يهاجر؟ ولا يسكت؟"

تذكر جلسة حوارية حضرها قبل اعتقاله، في مركز ثقافي بائس.

قاعة شبه فارغة، شباب منهكون، تتقاذفهم الأسئلة نفسها:

"شنو الفرق بين الموت هنا والموت في البحر؟"

"فين نقدر نعيش كإنسان؟"

"آش معناها تكون شاب فهاد البلاد؟"

"ننتحر بصمت ولا نغامر نهرب؟"

تذكر أحدهم، شاب نحيل، وقف يومها وقال بصوت مبحوح:

"أنا كنحس بالعار لأنني مازلت على قيد الحياة"

الكلمات مازالت محفورة في ذهن هشام.

يومها لم يصفق أحد. لا أحد تجرأ على الابتسام.

لأن كل واحد شعر أن الجملة قيلت باسمه.

عاد الحارس يمرر نظراته على الزنازين.

فتح فتحة صغيرة وألقى ببعض الخبز اليابس.

أغلق وابتعد ضاحكا.

في الزنزانة المقابلة، شاب آخر همس بصوت مسموع:

"علاش ما ينتحرش الواحد ويتهنى؟ هاد البلاد ما كتسمع غير صوت الموت".

رد عليه هشام، لأول مرة منذ أيام:

"لأنهم هادشي الي باغيين بصح نبقاو ساكتين أو ننتاحرو".

سكت الآخر.

ثم قال:

"واش كتظن راه ممكن نعيشو هنا بحال البشر؟"

قال هشام، بنبرة مجردة من أي أمل:

"ماشي المشكل نعيشو بحال البشر... المشكل هو أنهم باغيين نعيشو بحال الأرقام. واحد... جوج... معتقل... صامت... خائف".

مرت لحظات.

ثم، من خلف القضبان، ترددت كلمات ارتجالية:

"بين البحر والمشنقة، بين الطيارة والحفرة،
كبرنا... ماشي بالحلم،
كبرنا باللاجدوى".

ساد صمت.

حتى الهواء بدا ثقيلا.

زنزانات من حجر، لكن الأرواح أضعف من أن تحتمل أكثر.

في الليل، حين نام الجميع أو تظاهروا بالنوم، ظل هشام جالسا في ركن الزنزانة، مستندا إلى الجدار، يحدق في اللاشيء.

لا أفكار واضحة. لا مخططات. لا رغبات.

فقط إحساس ثقيل... كأن داخله أصبح حفرة لا قاع لها.

لا جوع، لا غضب، لا حتى حزن.

قال في نفسه:

"هل يمكن أن يشعر الإنسان بالفراغ... لا لأنه فقد شيئا، بل لأنه لم يعد ينتظر شيئا؟"

لم تعد تعنيه المحكمة. ولا المظاهرة. ولا حتى من كتب عنه أو نسيه.

هو الآن كتلة صامتة من لحم وعظام، تحاول أن تفهم:
"ماذا بقي مني؟"

كان يسمع أن الإنسان روح، فكر، مبدأ، تاريخ.

الآن، لا شيء من هذا يبدو واقعيا.

اقترب من الجدار، وضع رأسه عليه كمن يستمع إلى صوت ما في عمق الجدران.

"هل أنا هنا؟"

صوت خافت داخله أجاب:

"لا... أنت هناك. حيث لا شيء".

في الفراغ الرمزي، لا معنى لاسمك، ولا لآرائك، ولا لذكرياتك.

كأن السجن لم يكن هو القضبان، بل ما أصبح عليه من الداخل.

هو، الذي كان يكتب، يصرخ، يواجه، يتحاور، يفضح...
أصبح الآن رجلا بلا حواف.

"الفراغ ليس أن لا تجد من تتحدث معه...
الفراغ الحقيقي هو أن لا تجد ما تقوله لنفسك".

غط في نوم ثقيل. لا أحلام فيه.

في ركن الزنزانة، ظلت عين كاميرا المراقبة تلمع حمراء.

تسجل الصمت، وتسجل هشام وهو يغيب أكثر داخل نفسه. كأن الفصل انتهى داخله، لا فقط على الورق.

صناعة التفاهة

جلس هشام داخل مقهى شعبي في الحي. كان التلفاز معلقا في الزاوية، يبث برنامجا ترفيهيا يصرخ فيه المنشط كأنه وسط معركة. طاولة بجانبه كان يجلس عليها أربعة شبان. أحدهم يضحك بطريقة هستيرية. الثاني يصور الشاشة بهاتفه ويرسل لقطة في مجموعة "واتساب". الثالث يتحدث عن مغني صاعد شتم الحكم والحكومة، فصار نجما. أما الرابع، فكان يحدق في الشاشة دون أن يرمش، كأنه في صلاة لشيء لا يرى.

طلب هشام قهوة سوداء. لم يكن يتابع البرنامج، لكن الصوت يملأ المكان، والعيون موجهة نحو الشاشة. منشط البرنامج يسأل فتاة بلهجة ساخرة:

"كتعرفي أفلاطون؟"

ضحك الجمهور. ضحك الطاولة كلها.

الفتاة أجابت بفخر:

"أنا ما كنعرفش أفلاطون، كنعرف غير راسي"!

وصاح المذيع:
"هادي هي بنت اليوم"!

وصفيق. وصفير. وابتسامات غبية في الوجوه.

أدار هشام وجهه نحو المقهى. كان يعرف اثنين من الشباب الجالسين. أحدهما كان متفوقا في الفلسفة في الثانوية. الآن يضحك كأنه يختنق. الثاني كان يحلم بأن يصبح أستاذا، والآن يتابع كل حلقات هذا البرنامج ويحفظ أسماء النجوم التافهة.

لم يكن في المشهد شيء يدعو للضحك. لكن هشام وحده لم يضحك.

خرج من المقهى ببطء. الجو حار. أطفال يلعبون في الزنقة بأغنية البرنامج ذاته. جدار الحي مغطى بملصقات إعلان الموسم الجديد. صوره تملأ الجدران أكثر من أي مرشح سياسي أو مفكر أو فنان حقيقي.

في طريقه إلى البيت، رأى طفلا صغيرا يقلد المذيع التافه:
"ماعندكم ماديرو بالقراية"!

ضحك الأطفال. هشام توقف. شيء داخله انكسر.

وصل إلى بيته، دخل غرفته، أغلق الباب. جلس على الأرض.

فتح دفتره. كتب:

"صار الضحك وسيلة قمع. البرامج لا ترفه الناس، بل تخدرهم. يعلمون الأطفال أن السخرية أفضل من المعرفة. أن الصراخ أعلى من الفكرة. أن الجهل يربح الجوائز".

ثم أغلق الدفتر.

أطفأ الهاتف.

وأغلق عينيه.

في الخارج، المقهى ما زال يصفق.

في صباح اليوم التالي، استيقظ هشام على صوت المذياع من بيت الجيران. كان الصوت مرتفعا لدرجة أن الجدار بدا وكأنه يتنفس ضجيجا. المذيع يتحدث بحماس مفرط:

"ضيفنا اليوم، الفنان الصاعد، الذي شق طريقه من قلب الأحياء الشعبية إلى نجومية البلاد... ابن الشعب، صوت الشارع، الموهبة الخارقة"

نهض هشام من سريره ببطء. غسل وجهه دون أن ينظر إلى المرآة. لم يكن في مزاج لرؤية ما أصبح عليه.

فتح هاتفه بعد تردد. كانت كل الصفحات والقصص تتحدث عن "يونس خرخور" شاب غنى في فيديو على اليوتيوب كلمات رديئة عن "البوطا" و"الدجاج المقلي" و"الحب في الطوبيس"، فحصد ملايين المشاهدات. الآن، صار نجما. التقطت له

صور مع وزراء وفنانين، واستضيف في برامج مع خلفيات براقة وديكور مبالغ فيه.

ظهر في فيديو جديد وهو يصرخ:

"أنا ما قريت، وما محتاج نقرا... أنا خرخور وبها نفتخر"!

في مكان آخر من المدينة، كانت طفلة تكتب في دفترها المدرسي: "بغيت نكون بحال خرخور".
ومدرسها، الذي أنهكته سنوات الوظيفة، تمتم في نفسه:
"ما بقا غير قدك باغي يولي كيف خرخور".

في مساء ذلك اليوم، كانت القناة الوطنية تبث حفلا تكريميا له. قدم كشخصية السنة.

كان الجمهور يصفق. والوزير الثقافي يضحك.

الكاميرا التقطت صورة لمخرج البرنامج وهو يهمس لمساعده:

"هاد الشي هو اللي كيشد الناس قدام الشاشة... كل سيمانة جيبو واحد بحالو".

في منزله، هشام أغلق التلفاز. جلس أمام دفتره وكتب:

"صعد التافه، وسقطت المعايير.
صار المقياس هو الضجيج، لا الفكرة.
صار التافه هو النموذج، والمثقف هو العدو.
نعيش زمنا تكافأ فيه الرداءة وتعاقب فيه المعرفة".

ثم أغلق الدفتر، ووضعه تحت الوسادة.

في الخارج، كانت الألعاب النارية تعلن عن بداية موسم جديد من التفاهة.

في حي صغير، على ناصية شارع ضيق، جلس سعيد، طفل في الثانية عشرة، أمام هاتف قديم مكسور الزرار. عيونه تلمع بحلم كبير، أكثر من طاقة جسده الصغير.
هو لا يريد مدرسة، لا يريد أن يكون مهندسا ولا طبيبا، بل يريد أن يصبح "يوتيوبر" مشهورا، مثل "يونس خرخور."

يقف سعيد أمام مرآة متهالكة في غرفته الصغيرة. يكرر كلماته بلهجة تافهة يحاول تقليدها من البرامج التي يشاهدها:

"السلام عليكم ليومة جيتكم بفيديو جديد..."

يرتدي قميصا ملونا فيه رسومات كرتونية، يلتقط هاتفه بكاميرا مهزوزة، ويبدأ في التصوير.

والده يدخل الغرفة بغضب:

"ياك قلت ليك ديها فقرايتك؟ واش بغيتي تولي بحال خرخور؟"

سعيد ينظر إليه بعينيه اللامعتين:

"بابا، هاد هو المستقبل. ما بقاتش المدرسة مهمة. اليوتيوب هو الطريق".

الأب يهز رأسه. يذكر نفسه بوعوده له قبل سنوات، عندما كان سعيد صغيرا ويقول له: "غادي تكون مهندس، طبيب، أستاذ"...

لكن العالم تغير.

في التلفاز، في الشارع، في المدرسة، في البيت... صوت التفاهة صار أعلى من صوت الكتاب.

في المدرسة، المعلم يعلن لطلاب الصف:

"من اليوم، غادي نديرو ورشات على 'كيفاش نصورو فيديوهات ناجحة على تيك توك'، باش تكونو مواكبين العصر".

سعيد يرفع يديه بحماس. زملاؤه يضحكون، بعضهم يتابعونه في الهوس الجديد.

هشام، في مقهى قريب، يتصفح أخبار الحي في هاتفه. قرأ تقريرا عن ارتفاع نسب تسرب الطلاب.

كتب في دفتره:

"الطفل اليوم يحلم بأن يكون نجما في فضاء زائف.
الفضاء الذي لا يبني ولا ينتج، بل يستهلك ويضيع.
التعليم يتراجع، والأحلام تسيطر عليها ثقافة الشاشة الصغيرة.
هكذا تحكم السيطرة على المستقبل".

سعيد يرفع يديه في الهواء، يتصور أنه على خشبة المسرح.

في خلفية الحي، أغنية "يونس خرخور" ترددها مجموعات من الشباب.

في غد مجهول، سيكون سعيد واحدا من آلاف الأطفال الذين ضاعوا في دوامة الشهرة الزائفة، بعيدا عن جوهر الحياة.

في صباح رمادي، اجتمعت أخبار الحي على هاتف هشام في مقهى صغير.

رسائل صوتية من أصدقاء، صور متفرقة، فيديوهات قصيرة: مجزرة.

في زاوية من المدينة، اشتعلت أزمة حقيقية. انفجار أنبوب غاز في بناية قديمة، تسبب في سقوط عدد من القتلى والجرحى، وأجبر سكان الحي على الهروب بين دخان وأسمنت متداعي. أطفال بلا مأوى، نساء تبكي، رجال يحاولون إنقاذ ما تبقى.

لكن على شاشات التلفاز الوطنية، والهواتف، سادت حملة من التغطية التافهة.

برامج الترفيه الطاغية بثت "أشهر تحدي رقص على تيك توك"، بينما تلهى الجماهير عن المأساة الحقيقية.

على قناة الأخبار، المذيعة بابتسامة مفرطة:

"والآن ننتقل إلى أحدث تحديات تيك توك، والتي أدهشت العالم كله! تابعونا لمعرفة كيف يصنع الفنانون الموهوبون الفوضى على السوشيال ميديا"!

تجاهلوا الانفجار، تجاهلوا الدم، تجاهلوا المعاناة.

في المقابل، هشام كان يشاهد المشاهد المؤلمة على هاتفه بصمت، يكتب في دفتره:

"حين يتحول الألم الحقيقي إلى صوت خافت، ويحجب خلفه الضجيج المضلل...
حين تدفن الحقيقة تحت طبقات من التفاهة...
يصبح المواطن في عداد المفقودين، لا في قائمة الأحياء".

خرج هشام إلى الشارع. رأى مجموعة من الشباب ينشغلون بالتحديات الجديدة، يلتقطون الصور والڤيديوهات أمام لافتة "حي الأمل" التي تحولت إلى رمز للفشل واللامبالاة.

واحد منهم قال مازحا:
"أشنو هاد الانفجار؟ ما سمعتش. المهم، خليونا نكملو"!

وقف هشام للحظة، وعلت في صدره صرخة لا تسمعها الدنيا.

هكذا يختفي الألم في زحمة التفاهة، وهكذا يختفي الشعب بين لهيب مذبحة لا أحد يرغب في رؤيتها.

بعد ما عاين هشام حجم التفاهة التي تخنق الحقيقة، قرر أن يكتب مقالا شديد اللهجة يفضح هذا الواقع.

كتب بأسلوبه المعتاد: واضح، صريح، لا يخاف من الكلمات. وصف كيف أن برامج الترفيه تسحق الذكاء، وكيف أن نجوم التفاهة يحكمون المشهد، وكيف أن المأساة الحقيقية تهمش وتطمر خلف حجاب الكذب والضحك الزائف.

أرسل المقال إلى صحيفة إلكترونية معروفة بمواقفها المستقلة.

بعد أيام، جاءه الرد:
"مقالك مرفوض. لغتك غير رائجة، والأسلوب يجرح مشاعر القراء. نرجو منك تعديل النص ليكون أخف، أقل استفزازا".

لم يكتف بذلك، بل منع نشر المقال نهائيا. المبرر الرسمي كان "عدم توافق المقال مع سياسة التحرير" و"احترام التوازن بين المحتوى الثقافي والترفيهي."

شعر هشام بضربة موجعة، لكنها لم تكن جديدة.

فكر في السنوات الماضية من محاولاته المتكررة، في كل مرة تقفل الأبواب في وجهه بحجة "اللغة"، "النبرة"، أو "السياسة التحريرية."

ذهب إلى اجتماع صغير مع أصدقاء حقوقيين ومثقفين. شرح لهم الموقف. رفع دفتره وقال:

"هم يخافون من الكلمة الحقيقية. يخافون من صدقنا. يريدوننا نصمت، نكتب بلغة بلا معنى، نغطي على الجرح بضحك كاذب".

صمت المكان لبرهة. ثم قال أحدهم:

ثلكن مهما حاولوا، الكلمة الحرة باقية. وما دمت تكتب، فأنت تقاوم".

ابتسم هشام، رغم ألم المنع.

خرج من الاجتماع والدفتر في يده، يقلب صفحات المقال غير المنشور، ويعيد صياغته في قلبه.

كان يعلم أن النصر لن يكون اليوم، وربما لا غدا، لكن الكلمة كانت البداية.
والحقيقة، مهما حاولوا دفنها، ستظل تنبع من تحت الرماد.

الهجرة نحو اللاشيء

في ظلمة البحر المتوسط، يعلو صوت الأمواج كصرخة مكتومة. قارب خشبي صغير يعبر الأمواج الهائجة محملاً بأكثر من طاقته، وسط موجات عاتية وسماء قاتمة. على ظهر القارب، يجلس شبان وشابات، عيونهم ممتلئة بالخوف والأمل في آن واحد.

في وسط الظلام، كانت هناك فتاة شابة، زهراء، تمسك يد أخيها الصغير بقوة. يلفها البرد، لكنها تحاول أن تخفي ارتجافها. كان حلم الهجرة هو آخر بصيص أمل في حياة قاتمة.

في قريتها، كان هشام قد قرأ عن الرحلة المأساوية. قارب غارق، عشرات المفقودين. أرقام جديدة تنضاف إلى قائمة الضحايا. كتب في دفتره:

"هنا يغرق الحلم، هنا تقتل الأرواح ببطء.
على شواطئ أمل مكسور، يتحطم الجسد وتتمزق الروح.
الموت هنا ليس فقط غرقا في البحر، بل غرق في الواقع الذي لا يرحم".

توقف عن الكتابة للحظة، ثم نظر إلى السماء الرمادية من نافذة غرفته.
كان البحر يبتلع أحلام الكثيرين، وصمت الحكومات كان أعمق من الأمواج.

في المدينة، في المقاهي، تحولت قصص الغرق إلى حديث عابر، سريعا ما تطمر خلف أخبار النجوم والتحديات السخيفة. هشام شعر بثقل الكلمات التي لم تقال، بالحكايات التي ستغيب، بالأرواح التي لن تسمع.

وقف من مكانه، وأغلق الدفتر.
في الخارج، تواصلت الحياة، وسط صمت قاتل.

جلس هشام في مقهى الحي، يحمل هاتفه بيد مرتعشة. أمامه فيديو جديد وصل للتو من صديق مقيم في ليبيا. كان الفيديو مهتزا، وصوت الرجل ضعيفا لكنه مليء بالألم والحقائق الصادمة.

الرجل، شاب في أوائل العشرينات، يتحدث من داخل غرفة ضيقة مظلمة، يروي قصة هروبه من بلده عبر البحر.

قال بصوت متهدج:

"وصلت ليبيا قبل شهر. الطريق كانت جحيم. الناس في المراكز الاحتجازية تعيش كأنهم في سجن مفتوح. لا طعام، لا دواء، لا أمل.
كل يوم نسمع عن ناس يباعون، يشترون، يعذبون... ولا أحد يهتم.
هنا لا فرق بين المهاجر والقاتل. الجميع في نفس القفص".

توقف للحظة، قبل أن يكمل:

"قاربنا؟ كان متهالكا، لا يتحمل الأمواج، لكن لم يكن هناك خيار آخر.
سمعت قصصا عن أشخاص غرقوا، عن أمهات فقدن أولادهن، عن شباب تلاشت أحلامهم في البحر...
هذه ليست رحلة، هذه محنة. ونحن وحدنا".

هشام أغلق الفيديو ببطء، شعر بثقل الكلمات يثقل صدره.

كتب في دفتره:

"شهادة من الجحيم، لم تسمع على شاشات التلفاز.
لا برامج ترفيه، لا نجمات تافهات، فقط صرخات مدفونة.
قصص لا يريد أحد سماعها، لأن الحقيقة موجعة".

نظر حوله. المقهى يعج بالمارة الذين يضحكون على برامج الأغاني والرقص. لا أحد يلتفت إلى ما حدث. هشام أدرك مرة أخرى كيف تدفن المآسي في زحمة الضجيج، وكيف يسكت صوت الإنسان الحقيقي.

قام من مكانه، وقرر ألا يدع تلك القصص تختفي هباء.

في ركن مظلم من المدينة، كانت ليلى ترتدي معطفها الثقيل، تحاول إخفاء ارتعاش يديها. كانت الأيام الأخيرة تمر عليها كأنها زمن ثقيل، مليء بالأسى والفراغ. لم تقل لأحد عن خطتها، لم تخبر حتى أصدقاء الطفولة.

جلست على سريرها متأملة الجدران التي تلونها صور الذكريات، تلك التي باتت الآن كأنها عبء يثقل قلبها. كانت تتنفس بصعوبة، وكأن الهواء نفسه صار ثقيلا.
في الصمت، كتبت رسالة قصيرة على هاتفها:

"لا أريد أن أكون عبئًا عليكم. سأذهب حيث لا يعرفني أحد. هذه فرصتي الأخيرة".

لم يكن وداع، لم يكن حتى كلمة أخيرة. فقط اختفت كما لو أن الأرض ابتلعتها.

في اليوم التالي، اختفت ليلى عن الأنظار. لم يعرف أهل الحي، ولا أصدقاء المدرسة، ولا حتى أهلها أين ذهبت. البعض همس بأنها قررت الهجرة عبر البحر، مثل آلاف الشباب الذين لا يرون مستقبلا هنا.

في بيت هشام، قرأ الرسالة التي تركتها ليلى على صفحة إحدى مجموعات التواصل الاجتماعي. كان يشعر بثقل الكلمات، وكأنها صرخة مكتومة في وسط صخب المدينة.

كتب في دفتره:

"حين يغادر الأمل بلا وداع،
حين تختفي الفتاة كما يختفي النسيم في الصحراء،
حين يصبح الفراق الصامت أكثر ألما من صراخ الحي،
تصبح الهجرة ليست خيارا، بل خلاصا من قهر لا يرحم".

تذكر هشام حديث صديقه من ليبيا، وصدى أصوات الغرقى، والطفل الذي يريد أن يصبح نجما تافها على اليوتيوب.

كلهم أجزاء من نفس المشهد، لوحة حزينة ترسم يوميا على جدران مدننا.

في الخارج، ضوء النهار بدأ يخف، والمدينة تزداد صخبا، كأنها تنسى كل ما يحدث خلف أبوابها المغلقة.

وقف هشام، وأغلق الدفتر ببطء. شعر أن الواجب عليه أن يحمل هذه القصص، حتى وإن لم يسمعها أحد.

في زقاق ضيق من أزقة المدينة القديمة، حيث يختلط صوت الخطى بعبق الحنين والغبار، جلس هشام على مقعد خشبي متصدع قرب مقهى صغير. كان ينتظر لقاء مهما، رجلا عاد من رحلة الهجرة المحفوفة بالمخاطر.

وبعد دقائق، ظهر الرجل. وجهه متعب، عيناه تحملان ثقل البحر والليل الطويل. اسمه يوسف، شاب في الثلاثين من عمره، عاد من ليبيا بعدما فقد أصدقاءه في معسكرات الاحتجاز، وتجرع مرارة الخذلان من كل الجهات.

جلس يوسف مقابل هشام، وأخذ نفسا عميقا قبل أن يبدأ الحديث، صوته منخفض لكنه مثقل بالمآسي:

"يا هشام، ما شفتيش شحال من واحد غرق؟ ما سمعتيش صراخ أمهات في المراكز؟ ما حسيتيش ببرودة الخراب اللي في عيون شباب كانوا كيحلموا بحياة أفضل؟"

هشام استمع باهتمام، وكأنه يريد أن يمتص كل كلمة، كل شعور.

استمر يوسف:

"ليبيا؟ جحيم لا يوصف. مراكز احتجاز، بيع وشراء، تعذيب... ما كان حتى رحمة، حتى الكرامة كانت مفقودة. والبحر؟ البحر هو القبر الكبير. الناس اللي كانوا على القارب اللي غرقت؟ كانو مثلنا، مثل أولاد الحي، أحلامهم خربت مع الأمواج".

توقف لحظة، مسح وجهه بيده، قبل أن يضيف:

"رجعت عاري اليدين، بلا أمل، بلا مستقبل. في بلادي نفس المشاكل، والناس صايرة خايفة تحكي. القمع، الفقر، فقدان الثقة في أي شيء".

هشام كتب في دفتره وهو يسمع:

"الشهادات لا تنتهي، لكنها لا تصل.
صوت المنفيين لا يسمعه أحد.
الصمت هو الجريمة الأكبر.
في كل عودة قصة مكسورة، في كل لقاء وعد بالرحيل من جديد".

سأل هشام:

"كيف ترى المستقبل؟ هل هناك أمل؟"

ابتسم يوسف ابتسامة حزينة:

"الأمل؟ صعب. لكن لازم نبقى نحلم، حتى لو كان حلمنا مكسور. لازم نحكي ونوصل صوتنا، مهما كلفنا الأمر".

كان اللقاء أكثر من مجرد سرد قصة. كان لقاء بين روحين متعبتين تبحثان عن بصيص ضوء في عالم يغرق في الظلام.

في الخلفية، أصوات المقهى تزداد صخبا، ومارة يمرون من دون أن يلاحظوا وقع الكلمات العميقة التي تنساب في هذا الركن الصغير.

وقف هشام، مد يده لتحية يوسف، وشعر بثقل المسؤولية يكبر داخله.

خرج من المقهى، والليل يبدأ ينسج ظلاله الطويلة على شوارع المدينة، تاركا خلفه قصة جديدة حية في دفتره، صدى لحياة تكاد تنسى.

كانت المدينة تغرق في ضجيج لا ينقطع، أضواء الشوارع تتراقص على الأرصفة المتشققة، وأصوات السيارات تعانق صدى الخطى المتعجلة للناس. في قلب هذا الصخب، جلس هشام وحيدا في غرفته، والليل يعانقه كغطاء ثقيل.

على الطاولة، دفاتره مفتوحة، أوراق ملقاة هنا وهناك، قلمه يجري على صفحات تحمل آلام زمن ضائع. داخل رأسه دوامة من الأفكار، كأنها عاصفة لا تهدأ. قرأ شهادات المهاجرين، قصص الغرق، أحلام المفقودين، صرخات من فقدوا الأمل.

كانت الموجة الأولى من الربيع العربي قد جلبت الأمل، لكن الآن، بعد عقد من الزمن، تبددت الأوهام. هشام يشعر بأن بلاده أصبحت متاهة لا مخرج منها، وأنه هو نفسه جزء من هذه الأزمة الوجودية.

تساءل بصوت خافت، كما لو كان يحاور روحه:

"هل أرحل؟ أترك كل شيء خلفي، أبحث عن غد آخر، حيث لا دموع ولا خوف؟ أم أبقى وأقاتل من أجل وطن يكاد ينساني؟"

تذكر زهراء التي غرق قاربها، ليلى التي رحلت بلا وداع، يوسف الذي عاد محطما، الطفل الذي يحلم بأن يكون نجما في عالم تافه. صورهم تتداخل في عقله، وكأنهم يصرخون له ألا يتركهم وحيدين.

لكن البقاء يعني أن يعيش في سجن من الفساد، في وطن يخنقه الصمت، حيث يضيع الشباب بين خيبات الأمل والتفاهة، حيث تغلق الأبواب في وجه الصادقين.

فتح نافذته، تنفس هواء الليل البارد، سماء المدينة كانت مظلمة، غير مضيئة إلا من أنوار شاحبة بعيدة. تسلل شعور بالوحدة يلف قلبه. كتب في دفتره كلمات تقطع الروح:

"الوطن صار ثقلا على الكتفين، جرحا لا يندمل، سؤالا بلا جواب.
الهجرة ليست فقط فرارا، بل صرخة أمل مكسورة.
البقاء، رغم الألم، هو امتحان للصبر والكرامة".

أخذ قلمه وبدأ يكتب رسالة لنفسه، رسالة من المستقبل:

"هشام، القرار صعب، والاختيار لا يرحم.
لكن مهما كان طريقك، لا تنس أن تحافظ على صوتك، على كلمتك،
لأن في الكلمة الحقيقة، وفي الحقيقة الحياة".

جلس طويلا، ينظر إلى الصفحة البيضاء أمامه، وكأنه ينظر إلى حياة لم تكتب بعد.

في الصباح التالي، استيقظ هشام متعبا، لكنه يحمل في قلبه قرارا. ليس بالضرورة الهجرة أو البقاء فقط، بل مقاومة الصمت، والبحث عن طريق جديد، حتى لو كان وحيدا في الطريق.

غادر غرفته، وخطى بثقة، رغم ثقل الحيرة التي لا تفارقه. كان يعلم أن قصته ما زالت في بداياتها، وأن الطريق أمامه طويل، لكنه مستعد لأن يحمل الشعلة، مهما كانت المظلمة.

التيارات المتصارعة

بعد صباح مليء بالأفكار والثقل الذي حمله من أمس، توجه هشام إلى القاعة الكبرى في مبنى المجلس الثقافي بالمدينة. كانت هناك مناظرة مرتقبة تجمع ممثلين عن تيارات سياسية مختلفة، من اليسار إلى اليمين، مرورا بالحركات الإسلامية والعلمانية، وكل يحمل خطابه المتكرر، وكأنه يعيد تدوير كلمات قديمة بلا روح.

دلف هشام إلى القاعة التي اكتظت بالمستمعين، بعضهم جاؤوا بشغف، لكن الغالبية يحملون نظرات متعبة تعكس إحساسا عميقا بالملل من هذا المسرح السياسي الذي لا يغير شيئا.

بدأت المناظرة، وتناوب المتحدثون على المنصة، كل يدافع عن موقفه بقوة، لكن الكلمات كانت تختنق في دائرة مفرغة.

قال أحد ممثلي التيار الإسلامي، بصوت مرتفع:

"نحن الشعب الحقيقي، ومن حقنا أن نحكم بما يتوافق مع قيمنا الدينية. التغيير الحقيقي يبدأ من تطبيق الشريعة".

رد عليه ممثل اليسار:

"هذا الكلام مكرر، لا يجيب عن أزمة الفساد ولا عن البطالة. الحل هو في تحرير الاقتصاد والتعليم، وليس في العودة إلى خطاب ديني تقليدي".

ثم جاء صوت تيار علماني:

"علينا فصل الدين عن السياسة، الدولة الحديثة تتطلب عقلانية لا تحكمها مشاعر أو تقاليد موروثة".

وسط هذا التبادل، كانت المداخلات لا تنقطع، لكنها لا تضيف جديدا، بل تزيد من الجفاء والانقسام.

هشام جلس يراقب المشهد، شعر بخيبة أمل تتسرب إلى داخله. كل هؤلاء، كل التيارات، يتصارعون على السلطة والنفوذ، لكن المواطن البسيط غائب. هم يتحدثون عن المستقبل وكأنهم على مسرح، بينما الواقع يصرخ من خارجه.

فكر في كلمات صديقه يوسف، العائد من ليبيا، وفي قصص المهاجرين، وفي الطفل الذي يحلم بنجم زائف على الإنترنت. كلهم ضحايا هذا النقاش العبثي.

رفع دفتره وبدأ يدون:

"مناظرة بلا روح، كلمات تتكرر بلا معنى، خصومات لا تنتهي.
الشعب يتكسر بين أطراف متناحرة، لا تستمع له ولا تراه.
الصراع على السلطة يبتلع المستقبل، ويترك الوعي في هاوية الجهل".

وسط الضجيج، ارتفع صوت أحد الشباب من الحضور، محاولا كسر الجمود:

"هل فكرتم يوما ماذا يعني كل هذا لنا؟ ماذا عن حقوقنا؟ عن الفقر؟ عن الحريات؟"

لكن كلماته تلاشت وسط أصوات المنادين بالردود التقليدية، كأنها لم تكن.

غادر هشام القاعة بعد ساعات، والقيود السياسية تثقل كاهله، والواقع يتدهور بلا توقف.

في الخارج، هواء المساء كان باردا، لكنه أعاد له بعض النقاء.

أيقن أن المهم ليس في مناظراتهم، بل في قصص الناس الذين يعيشون خلف الأضواء الباهتة.

مشى بخطى ثقيلة، وبيده دفتره الذي لا يفارق، وعقله مشغول بحكايات لم ترو، بأحلام مكسورة تنتظر من يسمعها.

بعد ساعات من خروجه من القاعة، ظل هشام يغوص في التفكير العميق حول المناظرة التي حضرها. كان يدرك أن ما شاهده لم يكن سوى مسرحية فارغة، عرض تمثيلي تتحرك فيه القوى السياسية بحذر فقط للحفاظ على مصالحها الخاصة، بعيدا عن هموم الناس الحقيقية.

جلس في مقهى صغير على زاوية شارع ضيق، يأخذ رشفة من قهوته المرة، وينظر إلى وجوه المارة التي تحمل تعب الحياة وثقل الواقع. بدأ يتحدث مع صديقه مصطفى، الذي يعمل باحثا في الشؤون السياسية، معروف بواقعيته وصراحته.

قال هشام وهو يهز رأسه ببطء:

"ما شاهدته اليوم كان مكررا، لا يوجد أي نقاش حقيقي. كل حزب يتحدث عن مصالحه فقط، لا عن أفكار أو حلول".

أجاب مصطفى ببرود:

"الحقيقة أن الأحزاب في بلادنا باتت آليات للحفاظ على السلطة والامتيازات، لا أدوات للتغيير. كل واحد يحرس حصته، ولا يرغب في التفريط بها حتى لو كان ذلك على حساب الناس".

تبادل الاثنان الحديث لساعات، يسلطان الضوء على الفساد المتجذر داخل هياكل الأحزاب، وكيف أن الانقسامات السياسية لا تخدم سوى قلة من النخب المتنفذة.

قال هشام:

"كيف ينتظر من هذه الأحزاب أن تمثلنا؟ كيف ستغير واقع التعليم المهترئ، الصحة المدمرة، والفساد الذي ينهش المجتمع؟"

أجابه مصطفى:

"لن يحدث أي تغيير ما دام النظام السياسي يقوم على هذه المصالح، والناس مقيدة بين أحزاب تقاتل من أجل مناصبها، وليس من أجل مستقبل الوطن".

شعر هشام بثقل هذه الكلمات، لكنها لم تكن جديدة عليه. كانت تأكيدا لما يراه في كل مكان.

كتب في دفتره بحبر ثقيل:

"الأحزاب لم تعد سوى واجهات، تظهر صورة زائفة للتعددية، بينما الواقع أن مصالحها الخاصة تسرق صوت الجماهير.
الشعب يبحث عن مستقبل، لكنها تجد حائطا من المصالح المتشابكة التي لا تملك سوى أن تصم الآذان".

في الخارج، الشمس بدأت تغيب، وظل هشام يتأمل كيف أن السياسة أصبحت لعبة نخبوية، تديرها أيدي مختفية، على حساب أحلام ملايين المواطنين.

وقف من مقعده، وهو مصمم على ألا يترك صمته يتلاشى في زحمة المصالح، وأن يكتب ويكشف ما لا يريد الآخرون أن يعرف.

بعد أن غادر هشام المقهى، مشى في شوارع المدينة التي كانت تضج بالحياة والضجيج، لكن في قلبه كان صوت سؤال يدوي بلا إجابة واضحة: من يمثلني؟

وقف فجأة بجانب حائط مغطى بلافتات انتخابية وصور لمرشحين يتبارون على الوعود الكبيرة، لكن وجوههم كانت تحمل علامات اللامبالاة والوعود المكررة التي لم تتحقق.

اقترب منه رجل في منتصف الخمسينيات، يرتدي ملابس بسيطة ووجهه يحمل آثار التعب والهموم. كان عمالا بسيطا في مصنع قريب، اسمه سامي. جلس بجانبه على أحد الأرصفة وقال بصوت حزين:

"أنا؟ من يمثلني؟ سؤال كبير يا هشام. كل ما أعرفه أن كل من وعدنا نسي الناس بمجرد أن وصلوا إلى مكاتبهم".

هز هشام رأسه موافقا، وقال:

"لكن هل هناك من يستمع فعلا؟ هل هم مهتمون بمعاناتك أنت وباقي الناس؟"

تنهد سامي بعمق وقال:

"لا، لا أحد يهتم. كل يوم نسمع عن قوانين جديدة، عن خطط إصلاح، لكن الواقع لا يتغير. المدارس تعاني، المستشفيات تنهار، والفساد ينمو. ونحن نظل ندفع الثمن".

توقف قليلا، ثم أضاف:

"أحيانا أفكر، هل نحن فقط أرقام في حساباتهم؟ هل نستخدم كأدوات لصراعاتهم ولا أكثر؟"

نظر هشام إلى عيني سامي، ورأى مرآة حزنه ومرارة الواقع الذي يعيشه ملايين.

كتب في دفتره:

"المواطن يبحث عن صوت يسمعه، عن يد تمتد لا لتأخذ، بل لتعطي.
بين الوعود والوعود المكسورة، يقف وحيدا يسأل: من يمثلني؟
سؤال يتردد في أزقة المدن، في وجوه الغارقين بين وهم السياسة".

وقفت بجانبه امرأة مسنة، سمعت الحديث، قالت بصوت رقيق:

"نحن بحاجة إلى تغيير حقيقي، لا شعارات. نريد أن نحيا بكرامة، لا أن نكون رهائن في لعبة مصالح".

ابتسم هشام، رغم كل شيء، كان هذا السؤال هو بداية الطريق.

بعد اللقاء المؤثر مع سامي والمرأة المسنة، عاد هشام إلى منزله محملا بثقل السؤال الذي ظل يتردد في ذهنه: من يمثلني؟ في قلبه شعور متزايد بالحاجة إلى قول الحقيقة، حتى لو كان الثمن غاليا.

بدأ يكتب في مقالاته، ينشر تحليلات صريحة تنتقد فساد الأحزاب، ضعف قياداتها، وخضوع بعضها للمنظومة السياسية الفاسدة التي لا تعطي فرصة حقيقية للتغيير. لم يترك زاوية إلا وسلط عليها الضوء، لم يخش أن يسمي الأمور بأسمائها.

لكن ما لم يكن يتوقعه هو الهجوم الشرس الذي تعرض له من كلا الطرفين.

من جهة، جاءت الاتهامات من بعض أنصار التيارات الإسلامية، الذين رأوا في نقده نوعا من الخيانة أو الاستهداف لتيارهم، خاصة بعد أن فضح خذلان بعض قيادات حزب العدالة والتنمية، ودورها في تبديد فرص الإصلاح. أطلقوا عليه وصف "مرتزق إعلامي" و"عميل للنظام"، متهمينه بنشر الفتن وتشويه صورة الحركات الإسلامية.

في الوقت ذاته، هاجمه مناصرون للتيارات العلمانية واليسارية، الذين اعتبروا نقده لسياساتهم وعدم منحه فرصة أوصاف إيجابية بمثابة تحيز لصالح التيارات الدينية، وأنه يعيد إنتاج خطاب الانقسامات بدلا من توحيد الصفوف. وصفوه "بمتطرف في نقده" ومغرورلا يفهم تعقيدات المشهد السياسي.

وسط هذه الهجمات، كان هشام يشعر وكأنه يقف في عين العاصفة، محاصرا بين نار الاتهامات من جميع الجهات. رسائله ومنشوراته تعج بالتعليقات الحادة، وحتى في المقاهي كان يسمع الهمسات التي تنتقده أو تهاجمه.

في إحدى المرات، وبينما كان يتحدث في ندوة ثقافية صغيرة، قاطعته امرأة بصوت مرتفع:

"أنت لا تمثلنا! أنت تدمر ما بقي من أمل في الحوار الوطني. إذا كنت تريد التغيير، فابدأ بنفسك"!

ورد رجل من الصفوف الخلفية بغضب:

"كفى من الشتائم! نحن نحتاج إلى الوحدة، لا إلى محاولات التفريق"!

شعر هشام بوجع داخلي، لكنه لم يتراجع.

كتب في دفتره بعد الندوة:

"بين نيران الاتهام، وبين صمت من ينتظر،
أقف وحدي، أصرخ بحروف بلا صدى.
الهجوم من كل جانب لا يوقف الحقيقة،
فالصمت هو الجريمة، والكلمة هي المقاومة".

في قلبه، كان يعلم أن حمل الشعلة في زمن التفاهة والخوف ليس سهلا. لكن كان مؤمنا بأن الصمت لن يغير شيئا، وأن الحقيقة مهما بلغت قساوتها، يجب أن تقال.

وفي خضم العاصفة، قرر ألا يخاف، وأن يستمر في كشف ما يراه، مهما كانت التكاليف.

كان الصباح ينساب ببطء عبر نوافذ القاعة الكبرى في جامعة المدينة، حيث اجتمع طلاب من مختلف التوجهات السياسية لإجراء نقاش حول واقع البلد ومستقبله.
هشام، الذي أصبح صوتا معارضا واضحا، وجد نفسه وسط هذه الأجواء المشحونة التي تعكس الانقسامات العميقة في المجتمع.

بدأ النقاش بهدوء، مع كلمات عن التغيير والإصلاح، لكن لم تمض دقائق حتى بدأ الحذر يتحول إلى توتر. تحرك بعض الطلاب الذين ينتمون إلى التيارات الإسلامية بحماس دفاعا عن دور حزب العدالة والتنمية في المشهد السياسي، متجاهلين انتقادات هشام الأخيرة.

قال أحدهم بغضب:

"الحكومة حاولت، لكنكم فقط تريدون الهدم، لا البناء! انتقادكم هو مجرد حملة لتشويه صورة التيار الإسلامي".

رد عليه طالب من اليسار:

"هذا ليس بناء، بل تبرير للفشل! هل يعقل أن نستمر في دعم قوى لا تحترم الحقوق ولا تحقق العدالة؟"

حالة التوتر تصاعدت، وارتفع صوت أحد الطلاب قائلا:

"أنتم تحاولون إعادة تعبئة خطاب قديم، لا يفهم واقع الناس! نحن بحاجة إلى حلول جديدة، لا إلى تكرار نفس الوعود الفارغة".

هشام وقف في وسط القاعة، محاولا استعادة الهدوء:

"الجميع يتحدث عن التغيير، لكننا نغفل أن التغيير لا يأتي بالكلمات فقط، بل بالأفعال وبالصدق مع أنفسنا. الصراع على السلطة فقط لن يخدم أحدا".

لكن الكلمات لم تهدئ الأجواء، بل زادتها اشتعالا. طلاب التيارات المتنوعة بدأوا يتبادلون الشتائم، وظهر الصراع السياسي على هيئة شجار لفظي حاد، حيث حاول كل طرف فرض رؤيته بالقوة، متجاهلين الحاجة للحوار.

صرخت طالبة من التيار العلماني:

"لقد تعبنا من الانقسامات، نريد توحيد الصفوف من أجل الوطن، لا مزيد من الصراعات"!

في هذه اللحظة، انقسمت القاعة بين من يدعم هشام ومن يهاجمه، وتحولت الندوة إلى مسرح للصراع السياسي الحاد. أصوات الاحتجاج والرفض تعالت، والأجواء امتلأت بالغضب والإحباط.

بعد دقائق من الفوضى، تدخل الأساتذة والمنظمون لفض الاشتباك، محاولين إعادة النظام والسكينة. خرج هشام من القاعة وهو يشعر بثقل المسؤولية، ويدرك أن هذا الانقسام ليس فقط في الجامعة، بل في عمق المجتمع كله.

في طريقه إلى الخارج، التقى بشباب من مختلف التيارات، بعضهم يحمل في عينيه تعبا عميقا، وبعضهم الآخر يحلم بغد أفضل لكنه لا يعرف كيف يبلغه.

كتب هشام في دفتره:

"الجامعة مرآة الوطن، صراعاتها تعكس جروح المجتمع.
حين يتحول الحوار إلى صراع، تخسر الأمة.
شبابنا يحترقون في نار الانقسامات،
وحين تسكب الكلمات كوقود في هذا الحريق، لا تبقى إلا الرماد".

وقف للحظة ينظر إلى السماء، حيث بدأت الشمس تغرب بهدوء، تاركة خلفها ظلالا طويلة. في قلبه، رغم كل شيء، لم يفقد الأمل، لكنه بات يعرف أن الطريق أمامه أكثر وعورة مما تصور.

النهاية المؤقتة

بعد كل الصراعات التي شاهدها هشام في الجامعة، وبعد أن شاهد كيف يتفتت الشباب إلى تيارات متصارعة، عاد إلى شقته المثقلة بأوراقه وأفكاره. لكنه لم يكن وحده في هذا المشهد، فصديقه القديم سامر، الذي شاركه في بدايات الحراك الشبابي، كان يقف أمامه بحالة مختلفة تماما.

سامر لم يعد ذلك الشاب النشيط الذي كان يتحدث بحماسة عن التغيير والإصلاح. وجهه كان شاحبا، عيناه تحملان عبء سنوات من الإحباط والتعب. جلس أمام هشام دون كلمات في البداية، كأنها لحظة انتظار ثقيلة قبل الانهيار.

قال هشام بهدوء:

"سامر، لم نعد نرى حركتك كما في السابق. ما الذي حدث؟"

تنهد سامر بمرارة وقال:

"هشام، بعد كل هذا الوقت، بعد كل المعارك والخسارات، صرت أشعر أن لا شيء يتغير. النظام قوي، والأحزاب أقوى. كنت أحلم بوطن جديد، لكن ما وجدته هو استسلام الجماعات وتواطؤ النخب".

ابتعد قليلا وقال:

"المعارضة التي كنت أؤمن بها، تحولت إلى تكرار كاذب للأوهام. حتى أصدقائي أصبحوا يهمهم فقط مناصبهم وحصصهم. أنا تعبت يا هشام. تعبت من القتال في مكان لا ينتصر فيه الحق".

حاول هشام أن يشجع صديقه:

"لا يمكننا الاستسلام، ما زالت الكلمة حرة، وما زال الصوت يصل".

رد سامر بحزن:

"ربما أنت على حق، لكن حتى الصوت يكتم. كل محاولة للمقاومة تنتهي بقمع، أو بالخيانة من الداخل. أنا لم أعد أملك القوة لأستمر. عوض أن أخسر نفسي، قررت أن أختفي، وأترك اللعبة لمن يريدها".

نظر هشام إلى صديقه بحزن، ثم قال:

"لكن استسلامك يترك فراغا، فراغا يسده الفساد والتواطؤ. ماذا عن الشباب الذين ينتظرون منا مثالا؟ ماذا عن كل من يؤمن بالحق؟"

تنهد سامر:

"لا أعرف، هشام. ربما أنا ضعيف، وربما العالم حولنا قاس أكثر مما نتصور".

جلس الاثنان في صمت طويل، كل منهما يحمل في قلبه جرحا عميقا. هشام شعر بثقل مسؤولية أكبر، وبتحد جديد: كيف يستمر وهو يفقد من كان يثق بهم؟

كتب في دفتره:

"في كل استسلام قصة فشل، وفي كل فشل تحد جديد.
الصداقة الحقيقية تختبر في لحظات الهزيمة.
لكن الإرادة لا تموت، حتى لو بدا الظلام دامسا".

خرج هشام من الغرفة، وترك سامر في أعماق صمته، محاولا أن يجد في عتمة الأيام القادمة بصيص أمل جديد.

عاد هشام إلى غرفته تلك الليلة، لكن قلبه لم يكن في مكانه. وقع كل ما جرى مع سامر كصخرة ثقيلة على صدره، وكأن الرياح المظلمة التي تحيط به بدأت تدفعه نحو هاوية لا قاع لها.

جلس على حافة السرير، أضواء الغرفة الخافتة تعكس ظلالا متراقصة على جدران المكان، كما لو أن تلك الظلال تحاول أن تقول له شيئا عميقا عن حاله النفسي. أخذ نفسا عميقا ثم أغمض عينيه، لكن الذكريات والأفكار تراكمت بلا رحمة.

تذكر كل الكلمات التي نطق بها، كل الوعود التي قطعها لنفسه ولمجتمعه، وكل الخيبات التي عصفت به في السنوات الأخيرة. بدا له أن كل جهد بذله، وكل كلمة كتبها أو قالها، ذهبت هدراً وسط تيارات الغياب واللامبالاة.

بدأ صوت داخلي يتصاعد، صدى شكوكه وهمومه:

"هل حقا يصنع صوتي فرقا؟ هل ما أفعله يستحق كل هذا الألم؟ هل يمكنني أن أغير شيئا في بلد اختنق بالفساد واللامبالاة؟"

كل سؤال كان كلسعة تعمق جرحه الداخلي. بدأ يشعر بعجز غريب، بحزن يسكنه كظل يلاحقه، وبوحدة تزداد اتساعا. لم يكن الانهيار مجرد لحظة ضعف، بل تحطم لإيمانه الذي بنى عليه كل حياته.

تسللت الدموع بصمت إلى عينيه، لكنه لم يحرك ساكنا. لم يرغب أن تظهر ضعفه لأحد، حتى لنفسه.

في داخله، كانت الحرب أكبر من أي صراع خارجي، كانت معركة ضد الاستسلام النفسي، ضد خيانة الأمل.

أخرج دفتركه وفتح صفحة جديدة، بيده المرتجفة بدأ يخط كلمات تعبر عن ذلك الانهيار:

"سقطت أمام مرآة نفسي، ورأيت وجها غريبا،
وجه رجل تعب من الصراع، ولكنه لم يستسلم بعد.
الحزن يغسل روحي، والشك يعتصر قلبي،
لكن هناك شيء ما، رغم كل شيء، يصرخ: لا تفقد الطريق".

ظل يكتب لساعات، تنساب الكلمات كعلاج لروحه المتعبة. ثم جلس متأملا، يعرف أن هذه اللحظة ليست نهاية القصة، بل بداية فصل جديد، ربما أصعب، لكنه ضروري.

تذكر وجوه الذين التقاهم: سامر المستسلم، سامي العامل، الطفل الحالم، والمرأة المسنة. هؤلاء كانوا سببا في ألا يستسلم، أن يقاوم.

نهض ببطء، وذهب إلى النافذة، نظر إلى السماء الملبدة بالغيوم، وكأنه يبحث عن بصيص نور وسط الظلام. قال لنفسه بهدوء:

"أنا هشام، لا أستطيع الهروب. هذا الوطن يحتاجني، حتى لو كنت وحدي".

أغلق عينيه للحظة، واستعاد بعض القوة من عمق روحه، مستعدا للمعركة القادمة.

مرت أيام عصيبة على هشام بعد انهياره الداخلي، لكن ما لم يكن يتوقعه هو الصدمة التي ستصل إليه من خارج ذاته. في صباح يوم رمادي، طرق على باب شقته زوجته مريم بوجه متعب وقلق، وقالت بهدوء مكسور:

"هشام، هناك مشكلة كبيرة... علينا أن نرحل من هذا المنزل".

نظر إليها بدهشة، وطلب توضيحا. أخبرته مريم بصوت منخفض:

"المالك قرر بيع العقار، وأخبرنا أننا يجب أن نخرج في غضون أسبوع. لم يعد لدينا مكان".

تملك هشام شعور غريب بين الغضب والضعف. وقف للحظة، ثم تساءل في نفسه: "كيف يمكن أن يكون هذا؟ في زمن تتهاوى فيه كل شيء، حتى الأمان أصبح حلما بعيدا".

اتصل هشام بالمالك لكنه لم يجد سوى برود في الرد:

"أنا أعتذر، لكن هذا قراري، وأنا حر في ذلك".

تفقد هشام غرف الأولاد، وعيونهم الصغيرة تحملت الصدمة بصمت، بينما مريم تحاول إخفاء دموعها. الجدران التي كانت شاهدة على ضحكات ودموع عائلته، ستصبح قريبا ذكرى بلا مكان.

شعر هشام بثقل المسؤولية يتضاعف، فالمعركة لم تعد فقط في الميدان السياسي أو الفكري، بل في بيت صغير يكاد ينهار. أفاق على واقع قاس: نظام يعاقب حتى من يحاول المقاومة، حيث تُسلب الحقوق الأساسية بكل برود.

في تلك اللحظات، كتب في دفتره:

"المنزل ليس فقط جدرانا، بل هو ملاذ للروح،
وحين يسرق منك، يسرق معك الأمان والكرامة.
هذا الوطن لا يرحم، حتى أولئك الذين يحاولون التغيير".

جلس مع عائلته في غرفة المعيشة، حاول أن يكون قويا، أن يمنحهم الأمل رغم كل شيء، لكنه كان يشعر بأن الأرض تفتقد تحت أقدامه.

قرر هشام أن يحول هذا الألم إلى حافز جديد، أن يقاتل ليس فقط من أجل حلمه الشخصي، بل من أجل كل عائلة تجبر على التهجير، كل طفل يحرم من أمانه.

كان يعلم أن الطريق أصبح أكثر وعورة، لكن الهروب لم يكن خيارا.

"سنبقى هنا، حتى لو اقتضى الأمر أن نعيد بناء حياتنا من جديد".

خرج إلى الشارع، يأخذ نفسا عميقا، يتطلع إلى السماء الرمادية، مستعدا لخوض معركة جديدة ضد واقع قاس لا يرحم.

بعد الطرد القسري من المنزل، بدا هشام وهو ينظر إلى الأفق المتشائم وكأن بلده بأسره ينهار أمام عينيه. ليس فقط حياته الشخصية التي تهتز، بل واقع البلاد يغرق في ركود شامل، يلوح بأيد مكبلة في وجه المستقبل.

خرج إلى الشارع يخطو بخطوات متثاقلة بين زحام المدينة الخانقة. المحلات مغلقة، والمصانع التي كانت تنبض بالحياة صارت أشباحا صامتة. أرصفة الطرقات تملؤها أكوام القمامة، ورائحة اليأس تملأ الجو. لا شيء يتحرك، لا مشاريع جديدة، لا فرص عمل، ولا حتى صوت أطفال يلعبون في الأزقة.

وقف أمام مبنى إداري مهجور، كان يوما مركزا نابضا بالحياة الاقتصادية، والآن هو مجرد مكان يذكر بالماضي الجميل الذي بات بعيدا.

توقف هشام أمام مجموعة من العمال الذين تجمعوا أمام بوابة مصنع مغلقة، يتبادلون همومهم وأحاديثهم حول فقدان وظائفهم وعجزهم عن توفير لقمة العيش لأسرهم.

سمعهم يتحدثون بصوت منخفض، مليء بالخيبة:

"لا مستقبل لنا هنا، كل شيء يتهاوى. الحكومة تتفرج ونحن ندفع الثمن".

مشى هشام نحو أحدهم، شاب في العشرين من عمره، قال له بصوت متهدج:

"كنت أحلم بحياة أفضل، الآن لا أعرف كيف أُعيل أمي وإخوتي".

كانت هذه الكلمات كالسهم في صدره. فالأمل الذي كان يحمله هشام بدا يتلاشى أمام هذه الوجوه التي تعاني وتئن تحت وطأة الفقر والبطالة.

في المقهى القريب، جلس مع مجموعة من المثقفين والناشطين، يتبادلون الأخبار والتقارير التي تؤكد أن البلاد دخلت في حالة ركود اقتصادي وسياسي غير مسبوقة. الجميع يتفق أن هذا الركود هو انعكاس مباشر للفساد، عدم الكفاءة، والانقسامات السياسية.

كتب هشام في دفتره بمرارة:

"بلد يفتقد الحياة، تعيش فيه الأجساد بلا أرواح،
أمة تختنق بين جدران الفساد واللامبالاة،
والركود لا يقتل فقط الاقتصاد، بل يدفن الأحلام،
وحيث لا تتحرك العجلة، يموت المستقبل".

توقف عن الكتابة، وهو ينظر من نافذته إلى سماء ملبدة بالغيوم الثقيلة. رغم كل ذلك، كان في قلبه نار صغيرة لم تنطفئ، تذكر أن لكل ظلام فجر، ولكل ركود حركة، ولو كانت بطيئة.

لكن السؤال الذي ظل يطارده: هل ستكون هناك قوة تستطيع أن تكسر هذا الركود؟ وهل يمكن أن تُشعل شرارة التغيير من جديد في وطن تكسرت أحلامه؟

في زقاق ضيق يعج بصدى خطوات المارة وأصوات الباعة، جلس هشام على طاولة خشبية مهترئة داخل مقهى صغير، ضوء المصباح الخافت يرسم ظلالا طويلة على ورقة بيضاء أمامه. كان الليل قد أسدل ستاره، لكن في قلب هشام لم يكن هناك أي نوم، فقط أفكار تتصارع وكلمات تنتظر أن تخرج.

فتح دفترا صغيرا وضعه أمامه بعناية، وبدأ يخط سطوره الأولى، لكن هذه المرة لم تكن مقالة، ولا خطابا، بل وصية سياسية رسالة أخيرة يتركها لمن يأتي بعده، لمن ظل يحلم بحرية وعدالة في وطن مثقل بالفساد والخذلان.

كتب بصوت داخلي صارخ، كأنه يحفر بالكلمات في قلب التاريخ:

"إذا قرأت هذه الكلمات، فاعلم أنني لم أختر الصمت رغم كل العواصف، ولم أختبئ خلف الأقنعة رغم القهر. تركت لك الحقيقة، كما هي، بلا رتوش أو تحريف. تركت لك صوت من بين آلاف الأصوات التي قتلت، ولم تسمع".

توقف لوهلة، ثم أكمل:

"لقد جربت أن أقاوم، أن أصرخ، أن أفتح أبواب الحوار، لكنني وجدت القفز فوق الحواجز كان يحتاج أكثر مما أملك. نظام غارق في مصالحه، نخب تائهة في متاهات السلطة، وشعب يمضي في دوامة من الصمت واللامبالاة".

ترك القلم ينساب بحرية، وكأن الألم والخيبة يسيران في مجراه:

"هذه البلاد ليست لي وحدي، لكنها كل من أرادها وطنا وليس سجنا. لكل أمي تعبت من قهر الحياة، لكل طفل حرم من التعليم والدواء، لكل ناشط دفع الثمن، لكل مثقف تخلى عن حلمه، لكل شاب تاه بين نزاعات لا تنتهي".

حروفه كانت تشبه ضوءا خافتا في عتمة مظلمة:

"أنا لا أخاف الموت، لكنني أخاف أن يموت الحلم. أخاف أن ينهار الوطن في صمتنا، في خوفنا، في استسلامنا. لذلك أكتب هذه الكلمات كرسالة إصرار، كتحد لكل من يعتقد أن القيد سيكسرنا".

تنهد عميق، ثم كتب:

"لا تنتظر من يأتي لإنقاذك، فالنجاة تبدأ في داخلك. لا تقبل بدور المتفرج في مسرح الفساد، ولا تسمح لمن سرقوا الكرامة أن يسرقوا أملك أيضا. قاتل، حتى وإن بدا الطريق مظلما، فكل نجم يولد من ظلمة".

أغلق الدفتر للحظة، وأخذ نفسا عميقا. ثم تابع في سطر أخير:

"هذه ليست نهاية الرحلة، بل بداية أخرى، أضعها بين يديك. خذها، وحاول أن تجعلها حقا وطنا للحرية والكرامة. أما أنا، فأترك لكم الكلمات، والذكريات، والجرح العميق الذي لا يندمل".

ابتسم بخفة، رغم ثقله، وألقى نظرة أخيرة على الورقة التي كتبها، وكأنه يودع جزءا من روحه.

خرج من المقهى يمشي ببطء تحت ضوء القمر الباهت، يحمل في قلبه حملا جديدا، تحديا لن يكون وحده فيه. أدرك أن الكلمة التي ينقلها، ولو كانت وصية، قد تصبح نبراسا لأجيال قادمة.

وفي طريقه إلى البيت، ظل يردد في ذهنه:

"الكلمة قوة. والكلمة حياة. والكلمة حرية".

ما بعد الرماد

في زاوية هادئة من بيت صغير متواضع، جلس الطفل يوسف على الأرض ممسكا بكتاب قديم مغبر. كان الدستور القديم، ورقة نسيت على رف مهمل، لكنه كان بالنسبة له نافذة إلى عالم مختلف، عالم يجهله لكنه يشعر بحاجته له.

كان يوسف في الثانية عشرة من عمره، عيونه تلمع بفضول طفل يتوق لمعرفة أسرار هذا العالم الغامض. قرأ بحذر وببطء، الكلمات الكبيرة والثقيلة كانت تبدو وكأنها لغز كبير يجب حله. كل صفحة كانت تحمل وعدا بفهم حقائق بلده، والقوانين التي من المفترض أن تحمي الناس.

"الدستور هو القانون الأعلى،" قال بصوت منخفض وهو يحاول استيعاب المعنى. لكن الكلمات التي كان يقرأها لم تكن تعكس الواقع الذي يعرفه من حوله.

توقف ونظر إلى أمه التي كانت تعد الطعام في المطبخ. رأى في وجهها تعبا عميقا، قلقا يلازم كل يوم جديد. كان يعلم أن هذا الدستور الذي بين يديه، رغم عظمته، لم يحميها من الفقر، ولا من الخوف الذي يملأ قلبها.

تابع القراءة، فوجد مواد تتحدث عن الحقوق والحريات، عن العدالة والكرامة. قال لنفسه:

"لماذا إذن لا نرى هذه الحقوق في حياتنا؟"

تذكر قصص جاره الكبير الذي قبع في السجن لمجرد أنه تحدث بصوت عال ضد الفساد. تذكر صور الأطباء الذين لم يجدوا أدوية لإنقاذ مرضاهم، والمدرسين الذين يجبرون على السكوت رغم تردي التعليم.

تحرك شيء داخل يوسف، خليط من الحيرة والألم والرغبة في التغيير. كان هذا الطفل البريء يشعر بثقل الكلمات التي لم تترجم إلى أفعال، وكان يواجه سؤالا بدا أكبر منه بكثير: كيف يمكن أن يتحول دستور قديم إلى حياة حقيقية؟

جلس يوسف يفكر، يكرر الكلمات في رأسه: "الحقوق... العدالة... الحرية..." كلمات كأنها قنديل صغير في ظلمة طويلة.

رغم كل شيء، بدا له أن هذه الكلمات تحمل بذور أمل، وأعطاها قوة أكبر من عمره الصغير.

كتب في دفتره الصغير، الذي يحاول به التعبير عما يدور في رأسه:

"الدستور قديم، والبلد غارق في الهموم،
لكني أؤمن أن الكلمات، حين تقرأ بقلوب صادقة،
يمكنها أن تفتح أبوابا للغد".

سمع خطوات والده تقترب، وكان يعلم أن هذا الرجل الذي يكافح من أجلهم جميعا، يحمل أحلاما أكبر وأثقل من كلماته. نظر إلى والده، وقرر في قرارة نفسه أن يحمل تلك الكلمات الثقيلة، وأن يكون صوتا لمن لا صوت لهم.

في هذه اللحظة، كان يوسف رمزا للجيل القادم، يحمل عبء الماضي وآمال المستقبل، يجلس أمام دستور قديم لكنه ينبض بحياة جديدة في قلب طفل صغير.

بين صفحات دفتر يوسف الصغيرة، وبين أحلامه الهادئة، دوت فجأة موجة من الأخبار عبر الهواتف المحمولة في كل زاوية من المدينة. فيديو لشابة شجاعة ينتشر بسرعة، رغم الحظر الصارم المفروض على أي تعبير عن الاحتجاج أو النقد.

كانت ليلى، فتاة في ريعان شبابها، من إحدى الحارات الشعبية التي تعيش تحت وطأة الفقر والظلم، ظهرت في الفيديو وهي تخاطب جمهورها بجرأة غير مسبوقة. كانت كلماتها تحكي قصة الألم اليومي، الظلم المستمر، والفساد الذي يعم كل المؤسسات.

"نحن لسنا مجرد أرقام في إحصائياتهم، ولا أصوات تشترى وتباع. نحن أناس نستحق حياة كريمة، تعليما جيدا، صحة، وحرية".

الفيديو كان بمثابة شرارة أضاءت نار الأمل في قلوب الكثيرين. رغم محاولات السلطات إيقاف نشره، ظهر في كل مكان: في المقاهي، في الشوارع، وحتى في المدارس حيث شاهده يوسف مع أصدقائه بعيون واسعة وقلوب ملتهبة.

كان المشهد أكثر من مجرد تسجيل؛ كان تحديا صريحا، صرخة محتقنة انتزعت الصمت القاتل الذي فرضه النظام على الكلام الحر. أظهرت ليلى بوضوح وجه المقاومة، بكل بساطتها وجرأتها، تعبيرا صادقا عن غضب جيل كامل.

رغم أن الفيديو كان قد صدر تحت تهديد الحجب والملاحقة القانونية، إلا أن روحه القتالية كانت أقوى. تناقلت الأحاديث عن كيفية القبض على ليلى ومحاولات التضييق عليها، مما زاد من تعاطف الناس معها، وأشعل الرغبة في التغيير.

في بيت يوسف، كانت أمه تشاهد الفيديو على هاتفها بهدوء، ودموعها تنهمر بصمت.

"هذا هو صوتنا، يا يوسف، صوت كل من يعاني ولا يملك وسيلة للحديث".

نظر يوسف إلى الشاشة، واحتضن دفاتره، يشعر أن الكلمات التي كتبها ليست بعيدة عن هذه الحقيقة، وأن المسيرة طويلة وشاقة لكنها ممكنة.

في المقهى الذي اعتاد هشام التردد عليه، اجتمع بعض الشباب لمناقشة الفيديو وتأثيره، وقد بدا واضحا أن ثورة الكلمة الرقمية قد بدأت بالفعل، رغم الحجب والتهديدات.

قال أحدهم:

"هذا الفيديو ليس فقط صرخة ليلى، بل هو صرخة لكل من فقد صوته، لكل من اختنق بصمت النظام".

كانت الليلة تملأها همسات الأمل والتخوف، بين خوف من القمع وإصرار على المقاومة. هشام، من خلف نافذة المقهى، كتب في دفتره:

"في زمن يكتم الأنفاس، هناك من يصرخ بكلمة.
في قلوب الخوف يولد الشجاعة.
والكلمة تنتصر حتى وإن ظنوا أنها مجرد همس".

كانت هذه الكلمات تعبيرا عن أمل جديد، أمل بوجود جيل لا يخاف، جيل يرى في التحدي طريقا للحياة، مهما كانت المصاعب.

بعد انتشار فيديو ليلى الذي أطلق شرارة أمل في النفوس، اجتمعت مجموعة من الناشطين الحقوقيين والمثقفين في غرفة صغيرة في أحد المراكز المدنية المهجورة. المكان كان يعج بصدى النقاشات الحادة والهمسات التي تعبر عن ثقل المسؤولية.

في وسط الطاولة كان هناك كومة من الأوراق، وأجهزة الحاسوب المحمولة، والأقلام التي لم تتوقف عن الخربشة. كانت مهمة المجموعة إعداد تقرير جديد يكشف حجم الفساد المستشري، الانتهاكات الحقوقية، وأوجه التردي في قطاعات حيوية كالاقتصاد والتعليم والصحة.

قالت سارة، ناشطة شابة وذات حضور قوي:

"هذا التقرير يجب أن يكون مرآة حقيقية لوطننا، لا تزييف ولا تسطيح. الناس تحتاج أن ترى الحقيقة كاملة، بكل قسوتها، لكي تستعيد وعيها".

أومأ الجميع بحماس، لكن في عيون بعضهم كان هناك توتر واضح. كان يعلم الجميع أن هذا التقرير ليس مجرد وثيقة، بل هو سلاح قد يقود إلى مواجهة مع قوى السلطة التي لن تتردد في قمعهم.

وقف علي، الباحث في المجال القانوني، وأشار إلى بعض البنود الأساسية:

"يجب أن نثبت بالأرقام كيف أن الفساد لم يعد حالة فردية، بل نظام متكامل. كيف تهدر الموارد، وكيف تُكتم الأصوات الحرة، وكيف تُستخدم القوانين لتثبيت الفساد بدلا من مواجهته".

كانت ليلى، التي ظهرت في الفيديو، جزءا من المجموعة، رغم الملاحقات الأمنية التي تواجهها. كانت صامتة لكنها تنظر بعمق، تجمع كل التفاصيل التي رآها هشام وتعلم أن هذه الكلمات ستصل إلى قلوب المواطنين.

في غرفة العمل، مرت ساعات طويلة من النقاش والصياغة، وكانت كل كلمة تكتب تزن بعناية، تزن بين الحقيقة والجرأة، بين الأمل والخوف.

كتب هشام ملخصا في دفتره:

"حين تتكلم الحقيقة، يصبح الصوت صاعقا.
حين تتحول الكلمات إلى وثائق، تصبح سلاحا.
هؤلاء الرجال والنساء لا يكتبون ليرضوا أحدا، بل ليوقظوا الأمة من سباتها".

وخارج الغرفة، في الشوارع، بدأت بعض الأصوات تتحرك، ناشطة صغيرة هنا، صحفي يتابع هناك، وطفل يقرأ دستورا قديما مع أمل يتجدد.

كان هذا التقرير بمثابة محاولة لإيقاظ البلد، ليرى مواطنوه ما يجري بعيونهم قبل قلوبهم، وليرفضوا الاستسلام أكثر.

حين أنهت المجموعة العمل، وقف الجميع، تبادلوا النظرات، وشعروا بوزن مهمتهم الثقيلة. لكن في تلك اللحظة، أدركوا أن الكلمات التي سيتحركون بها قد تكون شعلة تقودهم نحو غد أفضل.

بعد أشهر من الغياب القسري، عاد هشام إلى وطنه، مكسور الجسد لكنه لم تنكسر روحه. خرج من بوابة السجن، أو في حالة أخرى من منفاه، عائدا إلى الشوارع

التي كانت شاهدة على صراعه، تحمل بين جدرانها أصوات من قاوموا وصمتوا، من عاشوا وأُعدموا في صمت.

كان الهواء ثقيلا كما في اليوم الذي غادر فيه، لكن هشام شعر أن المدينة لم تعد كما تركها. خطواته كانت ثقيلة، لكنه يمشي بقوة رجل عرف طعم المعاناة وذاق مرارة الحرمان، رجل لا يمكن أن يكسر بسهولة.

في طريقه إلى منزله، لاحظ أن وجوه الناس قد تغيّرت. هناك في الأعين ألم عميق، لكن أيضا بريق من التحدي، علامة على أن الكلمة التي كتبها، والتقارير التي أعدت، وشرارة الفيديو التي انتشرت، لم تذهب سدى.

توقف أمام مقهى صغير اعتاد أن يجلس فيه، المقهى نفسه الذي كان مسرحا للنقاشات والتخطيط، ووجد الشباب يرحبون به بحذر وتقدير. نظر إليهم بحنان، لكنه كان يعلم أن المعركة لم تنتهِ.

جلس معهم، واستمع إلى قصص القمع المستمر، إلى أخبار الاعتقالات الجديدة، إلى هجمات السلطة على كل صوت حر، لكنه وجد في كلماتهم عزيمة لا تلين.

قال هشام بصوت حازم:

"عدت إليكم، ومعي هم الوطن وهم الناس. لم أعد وحيدا، كل واحد منكم هو هشام، وكل هزيمة نواجهها هي هزيمتي. لقد رويتهم قصة الألم، والآن يجب أن نروي قصة النضال، أن نصنع من الألم قوة، ومن السجن منبرا، ومن المنفى شهادة".

تحدث عن تجربته في السجن أو الغربة، عن الوحدة التي تذوب فيها الأحلام، لكنها لا تموت. عن القسوة التي تمارسها الأجهزة، لكنها لا تستطيع قتل الحقيقة.

في قلبه كان يعلم أن عودته ليست نهاية، بل بداية مرحلة جديدة، أكثر تحديا وخطورة. لكنه كان مستعدا، فقد تعلم أن لا أحد يحرر شعبا غير شعبه نفسه.

وبين أحاديثه مع الشباب، كتب في دفتره:

"لقد عرفنا الظلام، وها نحن نقترب من الفجر،
فجر قد يحمل في طياته دموع الأمهات،
وضحكات الأطفال،
وهتافات الشباب الذين لم يستسلموا".

خرج من المقهى، وانطلق في شوارع المدينة، يرى الأمل بين الأنقاض، يتلمس خيوط النور وسط الظلمة.

وفي داخله يقين لا يتزعزع: التغيير قادم، لا محالة.

عاد هشام إلى غرفته الصغيرة، ذات الجدران المتشققة والنافذة التي تطل على أزقة المدينة الخانقة، يحمل في يديه دفترا جديدا. لم يكن مجرد دفتر عادي، بل كان دفتر الوطن، صفحة بيضاء تنتظر منها أن تكتب قصة بلد غارق في صراعاته، متشبثا بالأمل رغم كل الألم.

جلس على مقعده الخشبي، أزاح الغبار عن الغلاف، ومد يده ليرسم أول كلمة. لكن الحبر لم ينطلق على الورقة بسهولة، كأن الكلمات تنتظر جرأة أكبر، لحظة صادقة قبل أن تنبثق.

أغمض عينيه، استدعى كل ما عاشه، كل لحظة ألم، كل كلمة ثورة، كل دمعة سكبت في الخفاء، كل أمل احتجز. تنفس بعمق، وبدأ يكتب.

كان أول السطر ثقيلا كالصخر، لكنه ينبض بالحياة:

"في هذا الدفتر تسجل أوجاع وطن، تحكى أحلام شعب، وتزرع بذور الغد".

لم تكن الكلمات مجرد حروف على الورق، بل كانت انعكاسا لروح جيل كامل، جيل سكنه الإحباط لكنه رفض الانكسار، جيل رفع الراية رغم أنف اليأس.

تذكر هشام كيف كان الطفل يوسف يقرأ الدستور القديم، كيف انتشر فيديو ليلى في الشوارع، كيف عادت الأرواح إلى حركة النشاط رغم السجن والمنفى، كيف كتب الناشطون التقرير الذي كشف وجه الواقع القاسي.

كانت رحلة طويلة من الظلمة، لكنها لم تفت جذوة الأمل، بل زادتها إشراقا.

ومع كل كلمة يخطها، كان هشام يشعر بثقل المسؤولية، وعمق التحدي. لكنه كان يعلم أن هذه الكلمات هي صوته، صوت من لم يسمع، ووعوده التي تظل تلهم وتضيء دروبا لم يسلكها أحد.

توقف للحظة، نظر إلى السطر الذي كتبه، ثم رفع عينيه نحو السماء الملبدة بالغيوم عبر نافذته. لم يكن الغد مضمونا، لكن الإيمان بالكرامة والحرية كان دربه.

كتب بسطر جديد، أكثر يقينا:

"هذا الدفتر ليس مجرد كلمات، إنه عهد الأحرار، شهادة الباقين، وصوت المقهورين".

كانت اللحظة تتسرب بصمتها، وكانت المدينة تحيط به بأصواتها المتقطعة: بكاء طفل، همس امرأة، صراخ بعيد، ورغبة في حياة أجمل.

هشام أغلق الدفتر بلطف، عانقه وكأنه طفل يولد من جديد، ثم قال في هدوء:

"ها هو البداية، بداية كل شيء".

خرج إلى الشارع، حيث الهواء ثقيل، والسماء قاتمة، لكن في قلبه، كان هناك نور لا يخبو. كان يدرك أن كل جيل عليه أن يكتب دفتره، وأن يحمل رسالته، مهما كانت التحديات.

ورغم كل شيء، كان يعلم أن الكلمات ليست النهاية، بل البداية الحقيقية.

وهكذا، بدأ هشام بكل شجاعة وإنسانية في كتابة أول سطر من دفتر البلاد.